المكتبة الثقافية
٩٨

الفن والقومية العربية

بقلم

محمد صدقي الجباخنجي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

أول ديسمبر ١٩٦٣

المكتبة الثقافية

٩٨

الفن والقومية العربية

بقلم

محمد صدقي الجباخنجي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

أول ديسمبر ١٩٦٣

اذا قسنا العمل الفنى بقـــدر ما يحتوى عليـــه من قيم فنية أو جمالية ، فاننا نستطيع القول بأن الفنون العربية مهما تنوعت مصادرها ، أو اختلفت البقاع أو الظروف التى أحاطت بها ، والعصور التى ازدهرت فيها ، فانها فى جملتها فنون شعوب جمعتها وحـــدة اللغة ، ووحدة التفكير ، ووحدة الالهام .

مقدمة

الفن هو لسان الحيــاة ، والدليل الناطق عليهــا ، فأينما وجد الانسان على سطح الأرض وجد الفن معه .

وللفنون صنوف ، ولها مظاهر متنوعة . وبدأت أول الأمر لتسد حاجة الانسان فى حيــاته المعيشية . ثم تطورت لتؤدى دورها فى تربيــة الذوق الســليم واشاعة البهجة فى النفوس ، الى أن أصبحت ضروبا من التعبير الروحى والوجدانى والعقلى ؛ لتنظيم العلاقة بين الناس بما يكفل الكمال والانسجام بينهم .

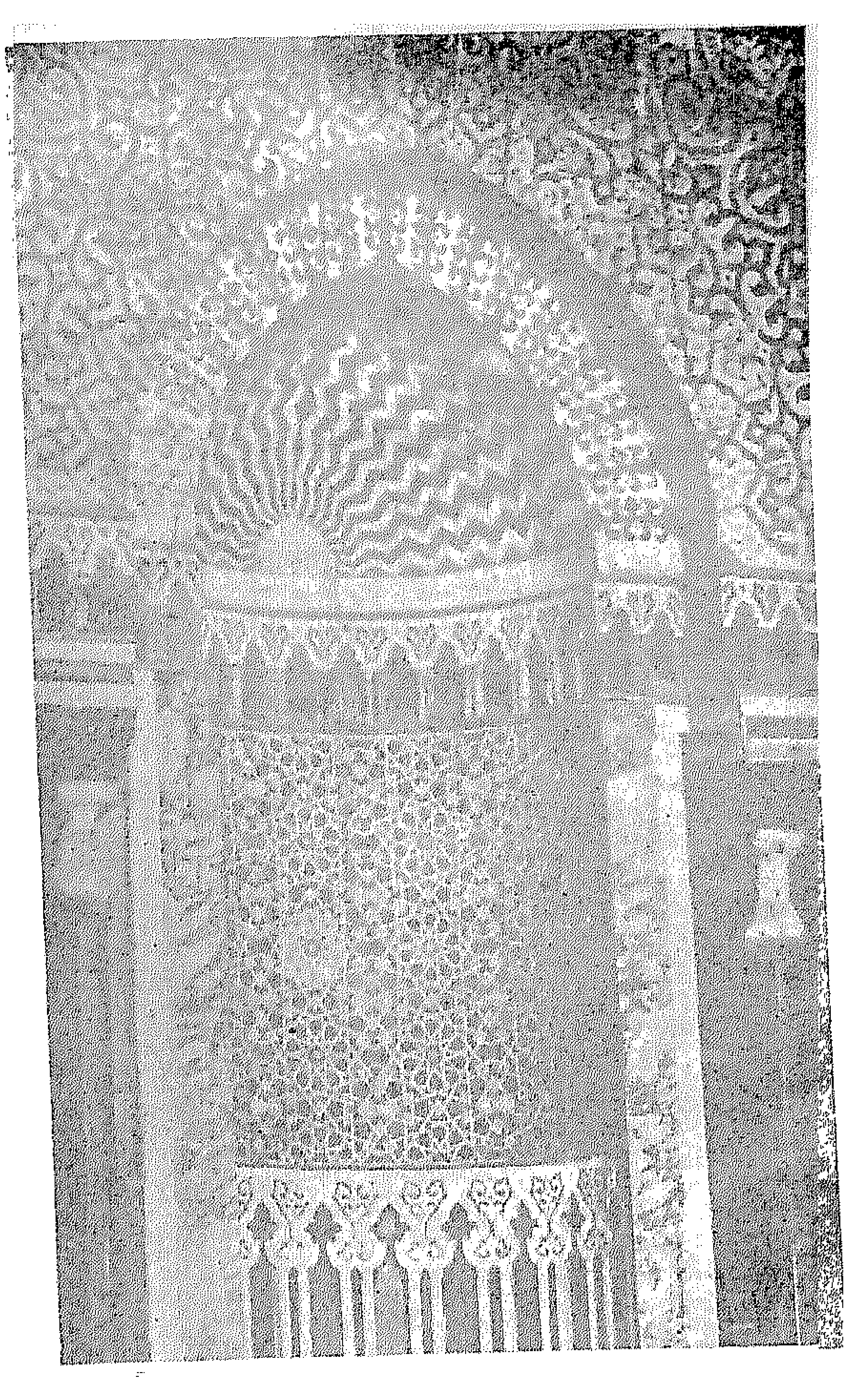
وأمة الاســلام كغيرها من الأمم ، لها فنون تميز قوميتها ، وطرز مطبوعة بطابعها الدينى ، اســتمدت عناصرها من تراث البلدان التى انتشر فيها الاسلام ، بعد أن خضعت للرأى الذى كان سائدا بين رجال الدين فى مختلف البقاع والعصور .

ولقد أجمع المعنيون بتاريخ الفنون الاسلامية ، على

أن القرآن الكريم لم يعرض لفنون التصوير بشيء . ويقول البعض ان ما تناولته الأحاديث الشريفة من تحريم تجسيم المخلوقات الحية ليس كله صحيحا . ويقول فريق آخر : ان الدخيل منه يمثل رأيا كان يدعو اليه رجال الدين بعد القرن الثانى للهجرة — بعد أن رأوا كيف كان الرومان يصنعون التماثيل لآلهتهم — فنادوا بتحريمها ، بدعوى أن تجسيم المخلوقات الحية تقليد للخالق عز وجل . ويقول فريق ثالث ان نحت التماثيل كان مكروها منذ عصر النبى عليه الصلاة والسلام ، رغبة فى حماية الناس من عبادة الأصنام ، مما دعا الفنانين الى الانصراف عن فنون التصوير والنحت الى مجالات فنية أخرى ، وجدوا فيها ما يروّح عن النفس ، بادخال الزخارف الخطية أو ذات الأشكال الهندسية أو النباتية ، فى كل ما يتناوله الانسان من سلع وأدوات نافعة ، وولعوا بالاكثار من هذه الزخارف ، وبالغوا فى ملء كل مساحة بها حتى اتهموا بالفزع من الفراغ .

وأدى ذلك الترف الزخرفى الى تخلف فنى التصوير والنحت فى العالم العربى ، على النحو الذى يعرفه

الأوروبيون ، نيفـا وثلاثة عشر قرنا ، أى حتى مطلع القرن العشرين الميلادى ، حيث أمكن للمسلمين فى مصر والعالم العربى أن يمارسوا فنـون التصـوير ونحت التماثيل بسماحة وحرية ، بعد أن اطمأنت النفوس الى ما تؤديه هذه الفنون من نفع للانسان ، وعدم مساسها الدين الاسلامى بشىء مما قد يضير أشد أئمة الاسلام تمسكا .



محراب جامع أبو بكر مظهر بالقاهرة
من القرن الخامس عشر

فتوى المرحوم الامام الشيخ محمد عبده

مفتي الديار المصرية سابقا(١)

« الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها »

إن هؤلاء القوم — أهل صقلية — (الايطاليين) حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج . ويوجد فى دور الآثار عند الأمم الكبرى ما لا يوجد عند الأمم الصغرى كالصقليين مثلا ، يحققون تاريخ رسمها واليد التى رسمتها ، ولهم تنافس فى اقتناء ذلك غريب ، حتى ان القطعة الواحدة من رسم رافائيل مثلا ، ربما تساوى مئين من الآلاف فى بعض المتاحف ، ولا يهمك معرفة القيمة بالتحقيق ، وانما المهم هو التنافس فى اقتناء الأمم لهذه النقوش . وعدّ ما أتقن

---

(١) ظهرت هذه الفتوى فى معظم الصحف العربية ، ونقلناها عن كتاب الفنون الجميلة من تأليف السيد أحمد يوسف طبعة سنة ١٩٢٢ .

منها من أفضل ما ترك المتقدم للمتأخر . وكذلك الحال في التماثيل . وكلما قدم المتروك من ذلك كان أغلى قيمة ، وكان القوم عليه أشد حرصا .. وهل تدرى لماذا ؟

اذا كنت تدرى السبب فى حفظ سلفك للشعر ، وضبطه فى دواوينه والمبالغة فى تحريره « خصوصا شعر الجاهلية ، وما عنى الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه » . أمكنك أن تعرف السبب فى محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل ؛ فان الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولا يسمع ، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى .

ان هذه الرسوم حفظت من أحوال الأشخاص فى الشئون المختلفة ومن أحوال الجماعات فى المواقع المتنوعة ، ما تستحق به أن تسمى ديوان الهيئات والأحوال البشرية . يصورون الانسان أو الحيوان فى حال الفرح والرضا والطمأنينة والتسليم . وهذه المعانى المدرجة فى هذه الألفاظ متقاربة ، ولا يسهل عليك تمييز بعضها من بعض . ولكنك تنظر فى رسوم مختلفة فتجد

الفرق ظاهرا باهرا . يصوّرونه مثــلا فى حال الجزع والفزع والخوف والخشية — والجزع والفزع مختلفان فى المعنى ولم أجمعهما ههنا طمعا فى جمع عينين فى سطر واحد ؛ لأنهما مختلفــان حقيقــة . ولكن ربمــا يقصر ذهنك عن تحديد الفرق بينهما وبين الخوف والخشية ، ولا يسهل عليك أن تعرف متى يكون الفزع ؟ ومتى يكون الجزع ؟ وما هى الهيئة التى يكون عليها الشخص فى هذه الحال أو تلك ؟ .. أما اذا نظرت الى الرسم — وهو ذلك الشعر الساكت — تجد الحقيقة بادرة لك ، تتمتع بها نفسك كما يتلذذ بالنظر فيها حسك . اذا نزعت نفســك الى تحقيق الاستعارة المصرحة فى قولك : « رأيت أسدا » ؛ تريد رجلا شجاعا . فانظر الى صورة أبى الهول بجانب الهرم الكبير ، تجد الأســد رجلا ، أو الرجل أسدا . فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة ، وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها . ان كنت فهمت من هذا شــيئا فذلك بغيتى ، أما اذا لم تفهم فليس عندى وقت لتفهيمك بأطول من هذا — وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين أو الشعراء المفلقين

ليوضح لك ما عرض عليك ، اذا كان ذلك من ذرعه ..
ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هـذا الكلام :
وهى ما حكم هذه الصور فى الشريعة الاسلامية ؟ اذا كان القصد منها ما ذكر من تصـوير هيئات البشر فى انفعالاتهم النفسية أو أوضاعهم الجسمانية . هل هـذا حـرام أو جائز أو مكروه أو منـدوب أو واجب ؟ فأقول لك :

ان الرسم قد رسم والفائدة محققة لا نزاع فيها . ومعنى العبادة وتعظيم الصورة أو التمثال قد محى من الأذهان — فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعـد ظهور الواقعة ، واما أن ترفع سـؤالا الى « المفتى » يجيبك مشافهة . فاذا أوردت حديث « ان أشد الناس عذابا يوم القيـامة المصورون » أو ما فى معناه مما ورد فى الصحيح ، فالذى يغلب على ظنى أنه سيقول لك ان الحديث جاء فى أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ فى ذلك العهد لسببين . الأول : للهو . والثانى : للتبرك بمثال من ترسم صـورته من الصـالحين — والأول مما يبغضه الدين ، والثانى مما جاء الاسلام لمحوه —

والمصوِّر فى الحالين شاغل عن الله أو ممهد للاشراك به . فاذا زال هذان العارضان وفصدت الفائدة ، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات كما فى حواشى المصاحف وأوائل السور ، ولم يمنعه أحد من العلماء مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضع النزاع .. أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه على الوجه الذى ذكر . وأما اذا أردت أن ترتكب بعض السيئات فى محل فيه صور طمعا فى أن الملكين الكاتبين ، أو كاتب السيئات على الأقل ، لا يدخل محلا فيه صور كما ورد فى حديث « ان الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا صورة » فاياك أن تظن أن ذلك ينجيك من احصاء ما تفعل ، فان الله رقيب عليك وناظر اليك ، حتى فى البيت الذى فيه صور ، ولا أظن الملك يتأخر عن مرافقتك اذا تعمدت دخول البيت لأن فيه صورا . ولا يمكنك أن تجيب المفتى بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة . فانى أظن أنه يقول لك ان لسانك أيضا مظنة الكذب . فهل يجب ربطه مع أنه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب .

وبالجملة انه يغلب على ظنى أن الشريعة الاسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل . على أن المسلمين لا يتساءلون الا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها . والا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم بالأولياء ؟ وهم ممن لا نعرف لهم سيرة ، ولا يطلع لهم أحد على سريرة ، ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة ، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع — وهم يخشونها كخشية الله أو أشد ، ويطلبون منها ما يخشون أن لا يجيبهم الله فيه ، ويظنون أنهم أسرع الى اجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى . ولا شك أنهم لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد ، ولكن يمكنهم الجمع بين عقيدة التوحيد ورسم صور الانسان والحيوان ، لتحقيق المعانى العلمية وتمثيل الصور الذهنية .

هل سمعت أننا حفظنا شيئا حتى غير الصور

والرسوم مع شدة حاجتنا الى حفظ كثير مما كان عنـــد أسلافنا ؟ !! لو حفظنا الدراهم والدنانير التى كان يقدر بها نصـــاب الزكاة « ولا يزال يقـــدر بها الى اليوم » أفما كان يسهل علينا تقـــدير النصاب بالجنيهـــات والفرنكات ونحو ذلك ، ما دام المثال الأول موجودا بين أيدينا ؟ ولو حفـــظ الصاع والمـــد وغيرهما من المكاييل ، أفما كان ذلك مما ييسر لنا معرفة ما يصرف فى زكاة الفطر ، وما تجب فيه الزكاة من غلات الزرع بعد تغيير المكاييل ؟ وما كان علينا الا أن نقيس مكيالنا بتلك المكاييل المحفوظة فنصل الى حقيقة الأمر بدون خلاف . أظنك توافقنى على أنه لو حفظ درهم كل زمان وديناره ومده وصاعه ، لما وجد ذلك الخـــلاف الذى استمر بين الفقهاء يتوارثونه خلفا عن سلف ، كل منهم يقدر المكيال والميزان بما لا يقدر به الآخر ..

لو نظرت الى ما كان يوجب الدين علينا أن نحافظ عليه لوجدته كثيرا لا يحصى عده ، ولم نحفظ شيئا

منه . فلنتركه كما تركه من قبلنا . ولكن ما نقول فى الكتب وودائع العلم ، هل حفظناها كما كان ينبغى أن نحفظها ؟ أو أضعناها كما لا ينبغى أن نضيعها ؟

ضاعت كتب العلم ، وفارقت ديارنا نفائسه . فاذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر ، أو مؤلف فاخر ، أو مصنف جليل ، أو أثر مفيد ، فاذهب الى خزائن بلاد أوروبا تجد فيه ذلك ، أما بلادنا فقلما تجد فيها ، الا ما تركه الأوروبيون ولم يحفلوا به من نفائس الكتب التاريخية والأدبية والعلمية ، وقد تجد بعض النسخة من كتاب فى دار الكتب المصرية مثلا ، وبعضها الآخر فى دار الكتب بمدينة كمبردج فى البلاد الانجليزية . ولو أردت أن أسرد لك ما حفظوا أو ضيعنا من دفاتر العلم ، لكتبت لك فى ذلك كتابا يضيع كما ضاع غيره ، وتجده بعد مدة فى يد أوروبى فى فرنسا أو غيرها من بلاد أوروبا .

نحن لا نعنى بحفظ شىء نستبقى نفعه لمن يأتى

بعدنا ، ولو خطر ببال أحد منا أن يترك لمن بعده شيئا ، جاء ذلك الذى بعده أشد الناس كفرا بتلك النعمة . وأخذ فى اضاعة ما عنى السابق بحفظه له . فليست ملكة الحفظ مما يتوارث عندنا ، وانما الذى يتوارث هو ملكات الضغائن والأحقاد ، تنتقل من الآباء الى الأولاد ، حتى تفسد العباد ، وتخرب البلاد ، ويتلقى بها أربابها على شفير جهنم يوم المعاد .

فتوى السيد محمد رشيد رضا [1]

إنى أرى ان علة ما ورد من الأحاديث أمر دينى محض يتعلق بصيانة العقيدة فى لوازم الشرك وشعائره . اذ لم يكن يعهد فى صدر الاسلام وقبله ، اتخاذ العرب للصور والتماثيل الا للعبادة كالذى كان من ذلك على الكعبة الشريفة ، فأزاله النبى صلى الله عليه وسلم يوم الفتح . فعلى هذا يحرم ما كان فيه قصد التعظيم الدينى ، وما كان شعارا دينيا للكفار ، اذا قصد به التشبه بهم ، أو كان بحيث يظن أنه منهم ، أو يذكر بعبادتهم وشعائرهم . فمقصد الاسلام ازالة

---

(۱) نشرت هذه الفتوى فى مجلة « المنار » لفضيلة الأستاذ السيد محمد رشيد رضا ، جوابا لمستفت فى أمر الصور وحلها وحرمتها ، فى عددها الصادر فى ۳۰ ذى الحجة سنة ۱۳۳۰ هجرية .

الشرك وشعائره والتشبه بأهله فيما كان عبادة دون موافقتهم فيما حسن من عادة ، ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم يلبس مثلما كان يلبس قومه ويدل على هذا أمر النبى عائشة بهتك الستار الذى كان فيه الصور ؛ لأن المشركين كانوا يغلقون الصور وينصبونها بتلك الهيئة ، فلما جعلت منه وسادة استعملها النبى ولم يبال بالصور التى فيها ؛ لأنها غير ممنوعة لذاتها ، ولا لأنها محاكاة لخلق الله تعالى ؛ ومن يقول ان علة تحريم التصوير واتخاذ الصور هو محاكاة خلق الله تعالى يلزمه تحريم تصوير الشجر والجبال والأنهار والأراضى والشمس ، والقمر والنجوم والآلات والأدوات والدوائر والخطوط .. ولم يحرموه — وكلها من خلق الله — وما استدل به على ذلك لا يدل عليه ، بل معناه أن الله تعالى يظهر للمصورين عجزهم يوم القيامة تمهيدا لعقابهم على مساعدة الناس بتصاويرهم على عبادة غيره .

وللتصوير منافع فى هذا الزمان كثيرة فى العلوم كالطب والتشريح ، والتاريخ الطبيعى وفى الصناعات

وفى السياسة ، والادارة والحرب وفى اللغة ، فان كثيرا من أسماء النباتات والحيوان لا تعرف مسمياتها فى اللغة لعدم تصويرها ، وكتب اللغة لا تزيد فى تعريفها على كلمة نبات م وحيوان م أى معروف . وما كل معروف عند أناس يكون معروفا عند غيرهم ، ولا كل معروف فى زمن يكون معروفا فى جميع الأزمان .

فالتصوير ركن من أركان الحضارة ، ترتقى به العلوم والفنون والصناعات والسياسة والادارة ، فلا يمكن لأمة تتركه أن تجارى الأمة التى تستعمله : ولكنه اذا استعمل فى العبادات يفسدها ؛ لأنه يحولها الى وثنية .

وقد كان النهى عن اتخاذ الصور من الوصايا العشر التى كانت فى ألواح موسى عليه السلام ، وهو نص لا يزال ثابتا فى التوراة التى فى أيدى أهل الكتاب ؛ لأن التوحيد الذى هو أساس دين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لا يتفق مع اتخاذ الصور اتخاذا دينيا :

ولكن القرآن الحكيم اكتفى باثبات التوحيد بالبراهين العقلية والكونية والأمثال التى تجعل المعنى

المعقـــول كالشيء المرئى بالعيون ، الملموس بالأكف ، وأوضـــحه بذلك وبفنون من البـــلاغة تستولى عـــلى القلوب ، وتحيط بالفكر والوجـــدان من جميع نواحيه — فلم تبق مع هذا حاجة للنهى عن اتخاذ الصـــور والتماثيل ، وانما نهى عنها النبى قبل نزول جميع القرآن ووصوله الى الناس ؛ لقرب عهدهم بالوثنية ، ولو كان اتخاذ الصور والتصوير الذى هو ذريعة من المحـــرم لذاته على الاطلاق ، أو لضرر فيه لا ينفك عنـــه مطلقا لكان محرما على ألسنة جميع الأنبياء .

ولما امتن الله عـــلى سليمان عليه الســـلام بقـــوله « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل » الى قوله « اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور » فجعل ذلك من النعم التى يشكر الله تعالى عليها .

* * *

وفى فتوى ثالثة لفضيلة الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقا نشرت فى كتاب أسماه « الرد الشافى فى التصوير الفوتوغرافى » يجد الراغب فى المزيد فصل الخطاب فى التصوير اليدوى وتحليل صناعة التصوير .

نظرة عامة

ولما ظهر الاسلام فى مطلع القرن السابع الميلادى ، كانت البلدان الواقعة على حوض البحر المتوسط تخضع لنفوذ الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية)[1] بينما كانت الدولة الساسانية[2] تحكم بلدان الشرق الأوسط .

---

(١) اتخذ الامبراطور قسطنطين من بيزنطة عاصمة لامبراطوريته الرومانية فى الشرق وسماها القسطنطينية وانتقل اليها فى سنة ٣٣٠ م وأنشأ الكثير من الكنائس والقصور . وكان الفن البيزنطى نتيجة امتزاج فنون مهرة الصناع فى آسيا الصغرى وبلدان شرقى البحر المتوسط بفنون الرومان ، ويرجع انتشار الفن البيزنطى فى حوض البحر المتوسط الى عهد الامبراطور جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) بعد الفتوح التى قام بها قائد جيوشه بليزاريوس .

(٢) تعتبر الدولة الساسانية آخر الدول التى أعاد ملوكها مجد الفرس القديم قبل الفتح الاسلامى لايران، =

وقد لقيت الدعوة الى الاسلام ترحيبا لجمع شمل العرب ، والقضاء على الدولة الساسانية ، وتطهير بادية الشام من نفوذ الدولة الرومانية البيزنطية . وكان العرب الأنباط على صلة بالاقليم السورى قبل الفتح ، وترجع هذه الصلة الى سنة ٨٥ قبل ميلاد المسيح عليه السلام . وكان لزاما على العرب ، بعد أن أجمعوا كلمتهم على الاسلام ، أن يعمروا أراضى الامبراطورية الاسلامية الكبرى المترامية الأطراف من حدود الصين شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، ومن بلدان آسيا الصغرى ، والبحر الأسود ، وجبال البرانس فى اسبانيا شمالا ، الى السودان والمحيط الهندى جنوبا .

ولم يكن للصانع العربى الجاهلى مكانة أو فنون أصيلة فى البناء أو التصوير أو النحت أو الزخرفة ، وكل ما أمكن معرفته من فنون بادية الشام ، أو بلاد الانباط أو اليمن ، كان متأثرا بالفنون الساسانية الايرانية

= وأول الملوك الساسانيين هو « أردشير بن بابك » (٢٢٦ ـ ٢٤١ م) وآخرهم « يزدجرد » (٦٣٢ ـ ٦٥٢ م) .

أو الهيلينسكية [1] أو البيزنطية .

وفى خلال القرن الأول الهجرى (القرن السابع الميلادى) بدأت تظهر فى الأقاليم التى دانت للاسلام معالم فنون مبتكرة ، ظلت حتى القرن الثانى عشر الهجرى (١٨ ميلادى) يميزها طابع اسلامى موحد ، رغم تنوع الطرز الفنية التى كانت متبعة فى تلك الأقاليم من قبل . واستطاع العرب أن يحذقوا من الفنون الصناعية التى يلتمس الانسان بها صلة عملية تربطه بالعالم الذى يعيش فيه — وهى التى تسمى بالفنون التطبيقية » أو الفنون النافعة ، التى تجمع بين المنفعة والجمال — ما ساعدهم على ممارستها بعد أن وقفوا على أسرار صناعتها ، وبعد أن استخدموا من الفنانين

---

(١) الفن الهيلينسكى هو نتيجة انتشار الفنون الاغريقية خارج شبه جزيرة اليونان فى الأقاليم التى فتحها الاسكندر المقدونى ، وكان طابع الفن فى كل اقليم يتميز بمميزات خاصة ، وكانت الاسكندرية وبرجامو فى آسيا الصغرى وجزيرة رودس من أهم مراكز الفن الهيلينسكى ، وكانت الاسكندرية تنتزع هذه الحضارة وتتفوق على أثينا نفسها .

الوطنيين من ارتضوا الاسلام دينا ، أو من بقوا على دياناتهم المسيحية ، واتخذوهم عونا على النهوض بالفن وفق تعاليم الدين الاسلامى .

ويحدثنا التاريخ أن الفن الاغريقى تأثر بالفن المصرى القديم ؛ وأن فنون الرومان كانت استمرارا لفنون الاغريق وامتدادا لها فى الولايات (الايطالية) التى كانت تخضع للنفوذ الاغريقى ؛ وأن الفن المسيحى بدأ بدوره يستعين برموز الرومان الوثنيين طوال مدة التبشير فى الكهوف (كاتاكومت) تحت سطح الأرض ، الى أن أصدر الامبراطور « ثيودوسيوس » مرسوم ميلانو سنة ٣١٣ م معترفا بالدين المسيحى دينا رسميا للامبراطورية الرومانية ، فانتشر المسيحيون يدعون الى المسيحية بفنون الرومان لفترة طويلة .

أما الفنون الاسلامية فتتميز على هذه الفنون جميعها بميزة استمدتها من العقيدة الاسلامية ، التى تقوم على التسامح والعدل ، مما أدى الى ازدهارها فى كل الأقاليم التى انتشرت فيها دعوة الاسلام ، انتشارا لم يشهد التاريخ له مثيلا .

ومن المعروف أن العرب منذ أن خرجوا من الجزيرة الي بادية الشام — الى أن استولوا على أراضى الامبراطورية الرومانية الشرقية فى سوريا ومصر — لم يكن لهم دراية بالفنون التشكيلية ، ولكننا اذا قسنا العمل الفنى بقدر ما يحتوى عليه من قيم جمالية ، لا بمصدره أو مأخذه ، فاننا نستطيع القول : بأن الفنون الاسلامية مهما تنوعت مصادرها ، أو اختلفت البقاع والعصور التى ازدهرت فيها ، أو الظروف التى أحاطت بها ، فانها فى جملتها فنون عربية تنتمى الى عقيدة واحدة ، وترمى الى هدف واحد ، وتستمد كيانها من الهام واحد : هو الاسلام .

وازدهار الفنون الاسلامية لا يعنى استخدام الفنون فى احياء الطقوس أو نشر العقيدة الدينية — كما كان يفعل أصحاب الديانات الأخرى عندما استخدموا فنون التصوير والنحت ، منذ بداية التاريخ ، لتعزيز عقائدهم فى أماكن العبادة ، أو الأدوات التى كانوا يستعملونها فى احياء طقوسهم — بل كان ازدهارا يقوم على تنشيط الأعمال الفنية لأغراض التعمير ، مع تجنب تصوير

الكائنات الحية أو ما من شأنه التدخل فى العقيدة الدينية ، خشية الانزلاق الى تقليد فنون الوثنيين ، مما أدى الى الاجتهاد عن رغبة فى ايجاد حلول معمارية مبتكرة ، فى بناء المساجد والأضرحة والمآذن والمدارس والقصور ، نتيجة تطوير الطرز التى كانت قائمة فى ظل الحضارات التى سبقت الاسلام .

وأدى تنشيط الفنون لأغراض الانشاء والتعمير ، وفى حدود طبيعة فنون كل اقليم الى المنافسة الحضارية بين الشعوب التى استضاءت بالاسلام ، والى تبادل السلع والصناع المهرة للارتقاء بكافة الفنون التى يتناولها الانسان ، لتسد حاجياته فى الحياة ، دون النظر الى غرض من أغراض الدعاية .

واكسبت هذه المنافسة الفنون الاسلامية طابعا قوميا موحدا ، يتسم بسحر الجمال وسعة الخيال ، فى استنباط وابتكار عناصر زخرفية لامثيل لها فى الفنون الأخرى ، ولاعهد للفنانين غير العرب بها .

الفتوح العربية

العصر **العرب في سوريا والعراق ومصر وشمال افريقية ، في عهد الخلفاء الراشدين : أبي بكر وعمر وعثمان وعلى من سنة ١١ الى سنة ٤٠ هجرية (٦٣٢ ـ ٦٦١ م) وكانت الحياة في تلك الأقاليم مضطربة ، تتنازعها الديانات المسيحية واليهودية والوثنية . ولم يكن السيف وحدة عاملا حاسما في انتشار دعوة القرآن الكريم ، بل كان العدل والاحسان والتسامح سبيل الدعوة الى الاسلام .**

وكانت مدينة الكوفة التى أسسها عمر بن الخطاب على نهر الفرات بالعراق ، مقرا للخلافة أيام على ، الى أن انتقلت الخلافة بعد مقتله الى معاوية بن أبى سفيان من سنة ٤٠ الى سنة ٦٠ هجرية (٦٦١ — ٦٨٠ م) وكان أول مؤسس للدولة الأموية [١] ، واتخذ «دمشق»

---

(١) مدتها من سنة ٤٠ الى سنة ١٣٢ هجرية (٦٦١ ـ ٧٥٠ م) .

عاصمة الاقليم السورى ، مقرا لحكمه . وكانت غزوة العرب الأولى فى افريقية الشمالية سنة ٢٣ هجرية (٦٤٤م) فدخلوا « برقة » من مصر ، ثم فتحوا طرابلس الغرب ، واستولوا عليها وعلى مدن كثيرة غيرها فى سنة ٢٦ هـ (٦٤٦ م) . وبنى العرب مدينة «القيروان» عاصمة لافريقية الاسلامية فى سنة ٥٧ هـ (٦٧٥ م) . واستولوا على « قرطاجنة » فى سنة ٦٩ هجرية (٦٨٨م) وقويت شوكتهم حتى أصبحوا فى سنة ٩٤ هـ (٧١١م) من القوة بحيث أنزلوا بجحافل « رودوريك » زعيم القوط كل هلاك ودمار فى غزوهم اسبانيا .

وفى عهد الأمويين اتسعت رقعة الاسلام وامتدت الفتوح من اسبانيا غربا الى حدود الصين شرقا .

ودمشق الاسلامية تم فتحها صلحا على يد عمر ابن الخطاب فى سنة ١٤ هجرية (٦٣٦ م) . ولما تولى معاوية الخلافة وضع أساس ملك بنى أمية على التسامح والعدل ، وكان فى بلاطه عناصر غير عربية وغير مسلمة ، وأدى هذا التسامح الى رضى أهل مدن الشام .

وكان الاقليم المصرى فى عهد عمر بن الخطاب يرزح

تحت نير حكم الرومان ، وأشار « عمرو بن العاص » الى فتحه لتثبيت فتوح العرب فى الشام وفلسطين ، كما يساعد كذلك على فتح المغرب والأندلس .

وأدى اسراف الامبراطورية الرومانية الشرقية فى الترف الى تصدع أركانها واشاعة الفساد ، وتفكك الروابط بينها وبين قبط مصر مما جعلهم يرحبون باتحادهم مع العرب .

وفى مصر حذا عمرو بن العاص حذو عمر بن الخطاب فى الشام ، فترك الأقباط يمارسون عاداتهم ويحيون شعائرهم ، ويشيدون كنائسهم فى المدينة الاسلامية ، ولم يعترض على شىء سوى اتباعهم عادة فرعونية قديمة ترجع الى الاعتقاد بأن الاله « النيل » لا يمن بمائه على مصر الا اذا ابتلع عذراء ، فكانوا يختطفونها من والديها فى كل سنة ، ويقذفون بها اليه فى حفل كبير ، فاستبدل عمرو العذراء بتمثال من الفخار احتراما للعادة ، وتحريما للقتل بغير اثم .

وشرع عمرو بن العاص بعد فتح الاسكندرية — بمعاونة الأقباط له ضد الرومان — فى تأسيس مدينة

الفسطاط سنة ٢٠ هجرية (٦٤٠ م) واتخذها مقرا للحكم ، فعمرها العمران والرقى ، وأنشأ فيها سنة ٢١ هجرية مسجدا جامعا باسمه ، وهو أقدم جوامع مصر كلها . ولقد ظلت صلاة الجمعة تؤدى فيه مائة وثمان وأربعين سنة الى أن بنى الجامع العسكر (الأموى) سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) واستمرت الصلاة الجامعة تقام فيهما الى أن بنى أحمد بن طولون (الأيوبى) مسجده فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) ثم الجامع الأزهر الذى بناه القائد جوهر (الفاطمى) سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م) فاقتصرت صلاة الجمعة على جامع عمرو بن العاص وجامع أحمد بن طولون والجامع الأزهر .

وتقدر المدة بين فتح عمرو بن العاص مصر فى سنة ٢٠ هـ (٦٤٠ م) ودخول الأتراك فى سنة ١٥١٧ م بثمانمائة وسبع وسبعين سنة .

ولقد ظلت مصر أموية من سنة ٤٠ — ١٣٢ هـ (٦٦١ — ٧٥٠ م) ثم عباسية من سنة ١٣٢ الى سنة ٢٥٤ هجرية (٧٥٠ — ٨٦٨ م) وفى هذه الفترة

أنشىء مقياس الروضة . ثم طولونية الى سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) وأنشأ أحمد بن طولون فى أثنائها مدينة القطائع والمسجد الجامع والقصر الكبير ، واهتم ابنه خمارويه بتزويد القصر بجناح طليت جدرانه بالذهب والصور الملونة ، وألحقت به حديقة غناء تزينها النافورات وبركة من الزئبق وحديقة للحيوانات النادرة .

ثم أصبحت مصر أخشيدية الى سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) ، ثم فاطمية الى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) . وفى أيام الفاطميين كانت مصر درة تاج الامبراطورية العربية الواسعة الأرجاء ، وبلغت الفنون بشتى صنوفها أسمى درجات الرقى ، وبنيت المساجد والقصور والحصون والمستشفيات ، وتجملت القاهرة فى خلال مائتى سنة بأجمل زينة عرفها العرب ، وسطعت أنوار القومية العربية وشملت بلدان شمال افريقية وسورية وجزر البحر المتوسط والأندلس وجزيرة صقلية .

ثم دخلت مصر فى العصر الأيوبى حتى سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب الخصم اللدود لعدوان الصليبيين ، وازدهرت فى عصره

العمـــارة وأنشئت المســاجد وألحقت بهــا المدارس ، وتقدمت الصناعات الفنية والنقوش والزخارف بأنواعها .
وبانتهاء العصر الأيوبى انتقل الحكم فى مصر الى دولة المماليك البحـرية حتى سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) (١) ودولة المماليك البرجية (الچراكسة) حتى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) وتلتها الدولة العثمانية الى سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) وفى أثنائها دب دبيب الشيخوخة فى الفن وتضاءل نشاط الفنيين .

وبينما الأحداث تجرى فى مصر، كانت فتوح العرب تمتد غربا الى شمال افريقية واســبانيا فيما بين سنتى ٩٢ و ٩٤ هـ عــلى يد طارق بن زياد مبعوث موسى ابن نصير ، والى المغرب من قبل الخليفة الأموى الوليد ابن عبد الملك (٨١ — ٩٦ هـ) (٧٠٠ — ٧١٥ م) ، وتوغل الفتح حتى بلغ جزيرة صقلية التى استولى عليها الأمير الأغلبى زيادة الله فى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) بعد

---

(١) يوافق عصر الدولة الايلخانية والدولة التيمورية فى ايران ، واستطاع المماليك أن يناهضوا المغول والصليبيين، وكان عصرهم عصر ازدهار للفنون عامة .

أن طرد البيزنطيين ، الى أن تم اخضاع الجزيرة كلها فى عهد الدولة الفاطمية فانتشرت فيها آداب وفنون العرب الى أن انتهى عهدهم بسقوطها فى أيدى قبائل النورماند فى سنة ٤٨٢ هـ (١٠٨٩ م) .

وبزوال حكم بنى أمية ، عقب ثورة خراسان بشرق ايران ، انتقلت الخلافة الى بنى العباس مما أدى الى فرار عبد الرحمن « الداخل » أحد أفراد أسرة بنى أمية الى اسبانيا حيث أسس خلافة اسلامية انتهت سنة ١٠٣١ م بعد أن مهدت لحكم البربر من شمال افريقية الى أن انتهى حكم المسلمين باسبانيا بسقوط « غرناطة » فى سنة ٨٩٩ هـ (١٤٩٢ م) .

وبدأت الخلافة العباسية عندما تمت مبايعة « أبو العباس عبد الله السفاح » فى ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ (٢٥ نوفمبر سنة ٧٤٩ م) وأنشأ على نهر دجلة مدينة بغداد واتخذها عاصمته الجديدة فى سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) وأصبحت مركزا اسلاميا هاما ، وانعبثت منها علوم الدين وعيون الأدب والفلسفة والتاريخ والتراجم، واتسعت رقعتها وشيدت فيها المبانى

وأنشئت الحدائق . وكان للعباسيين تأثير واضح على تطوير الفنون العربية التى انتشرت من بغداد الى سائر أنحاء العالم العربى ، حتى وصفها المؤرخون بأنها جنة الأرض ، ومدينة السلام وقبة الاسلام .

كما هيأت الدولة العباسية للفرس أن يأخذوا مكانهم بين العرب ، ثم تم تأسيس مدينة الرقة سنة ١٧٩ هجرية (٧٩٥ م) ؛ لتكون مقرا ثانيا للخليفة هارون الرشيد ومدة خلافته من سنة ١٧٠ — ١٩٣ هجرية (٧٨٦ — ٨٠٩ م) ، ومن بعده ابنه المأمون ، ومدة خلافته من سنة ١٩٨ — ٢١٨ هجرية (٨١٣—٨٣٣م) ، ثم انتقلت العاصمة من بعده الى « سامرا » التى أنشأها المعتصم فى سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٦ م) ودام حكمه [1] من

---

(١) كان لظهور الأتراك فى عصره ما ضاعف سلطانهم ، فأخضعوا لنفوذهم الخلفاء العباسيين من بعده الى أن سقطت دولتهم وانقسمت الى عدة امارات مختلفة ، مما أدى الى ضعف سلطان العباسيين فى افريقية وقيام دولة الأغالبة فى سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) واستمرت حتى سنة ٢٩٨ هـ (٩٠٩ م) تداول فى أثنائها إحد عشر =

سنة ٢١٨ الى سنة ٢٢٧ هجرية (٨٣٣ — ٨٤١ م) .
وتولى المتوكل الحكم من بعده فانتقل الى دمشق .

وكان السامانيون قد أسسوا فى سنة ٢٠٤ هجرية (٨١٩ م) عدة دويلات فى شرق ايران باقليم خراسان الذى يعرف الآن بأفغانستان واتخذوا من مدينة «بلخ» عاصمة لهم ، وفى أيام هـذه الدولة وصلت المعارف والفلسفة القمة بظهور الفليسوف الشيخ أبو علـى ابن سينا ، الذى يعتبر بعد الفارابى أول عالم فى الفلسفة فى الشرق ، وقد نشأ الاثنان وعاشا فى ذلك الزمن داخل حدود أفغانستان . وحلت محل الدولة السامانية الدولة الصفارية فى سـنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م)[1] ، وفى هـذا الوقت قبلت الأفغانستان الاسـلام بصورته النقية ، واستبعدت كل الأفكار الدينية الشاذة نهائيا ، ثم عاد المعتمد ، ومدة خلافته من سـنة ٢٥٨ الى سنة ٢٧٩

= أميرا » الحكم فى القيروان التى اتخذوها عاصمة لهم . وبجهود الأغلبيين تم خلط العرب بالبربر فى شـمال افريقية .

(١) وهى نفس السـنة التى قامت فيهـا الدولة الطولونية فى الاقليم الجنوبى (مصر) .

هجرية (٨٧٠ — ٨٩٢ م) الى بغداد بعد أن كان قد هجر « سامرا » فى آخر سنة من حياته . وولى من بعده المعتضد من سنة ٢٧٩ الى سنة ٢٩١ هجرية (٨٩٢ — ٩٠٢ م) .

وفى سنة ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) قامت فى أفغانستان [1]

---

(١) فوق هضاب سلاسل جبال الهندوكوش العالية ، وبين نهر السند وأكسوس ، يعيش شعب اشتهر بشجاعته وبسالته فى نشر القومية العربية بعد أن ذاع الاسلام فى ربوعه . أطلق على هذا الشعب أسماء تبعا لاختلاف اللهجات: منها اسم « الباشتون » و « الباختون » و « الباتان » و « الباهتان » و « الأفغان » . وكان جمشيد هو أول ملوك أسرة «البارادااتا» التى وضعت أسس الحضارة التى امتدت الى الهند وفارس والعراق ، وأسس قلعة بلخ عاصمة دولة « اريانا » . وبعد أسرة « البارادااتا » حكمت أفغانستان أسرة ثانية عرفت باسم « كاوه » أو « كيانى » ومعناها الحكماء ، ومن ملوكها كيكاوس وكيخسرو . وفى عهد أسرة « الاسباس » الثالثة ظهر زرادشت مؤسس ديانة عبدة النار . ثم حكم من بعده ملوك من أسرة كوشانى العظام ، وفى عصرها ظهرت البوذية . ثم أسرة كوشانى الصغار ، وكانت نهايتها فى أيام الخليفة عثمان رضى الله عنه ، وأصبحت أفغانستان تدعى « خراسان » عندما رحبت بالاسلام . وفى أيام الأسرة الغزنوية قامت حضارة اسلامية عميقة ، انتشرت فى أكثر من نصف الهند ، وكان للامام=

الدولة الغزنوية التى هزمها السلاجقة سـنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٧ م) وقضوا على نفوذ حكام ايران وآسيا الصغرى والعراق وسورية . ثم تولى المستعصم الخلافة من سنة ٦٤٠ الى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٤٢ — ١٢٥٨ م) وفى هذه السنة سقطت بغداد أمام هجوم « المغول » الذين أتوا من وسط آسيا بزعامة چنكيزخان ، وكانت العراق وايران من نصيب ابنه هولاكو مؤسس الدولة « الايلخانية » ومدتها من سنة ٦٥٤ الى ٧٥٤ هـ (١٢٥٦ — ١٣٥٣ م) وكان لاعتناقهم الاسـلام أثر كبير فى ازدهار الفنـون . وأعقب سـقوط الدولة الايلخانية

= أبى حنيفة، والامام أحمد حنبل، والامام البخارى، والترمذى وقتيبة ، ومحمد بن كرام زرنجى قائد قبيلة كرامية الأثر الأكبر فى تدعيم العقيدة الاسلامية • ومن الشعراء الذين ساهموا فى ترقية الشعر نذكر بشار بن برد الطخارى ، وأبا عطا السندى ، وأبا الفضل أحمد • كما يرجع الفضل الى موسى البرمكى ، ويوسف البرمكى ، ومحمـد بن جهم البرمكى ، وفضل بن سهيل السرخسى فى ترجمـة كتب البلخيين والفيديين الى اللغة العربية • كما برع العلامة الزمخشرى ، والتفتازانى ، والجامى فى البلاغة والنحو العربى •

هجوم مغولى آخر بقيادة تيمورلنك (٧٧٢ — ٨٠٧ هجرية / ١٣٧٠ — ١٤٠٤ م) ، واستقر حكمه فى خراسان ، وعظم شأن عاصمته هراة ، وكذلك بخارى وسمرقند فى عصر خلفائه من سنة ٨٠٧ الى ٩٠٧ هجرية (١٤٠٤ — ١٥٠٠ م) ، الى أن قامت أسرة الصفويين بفضل اسماعيل بن صفى الدين الأردبيلى (٩٠٧ — ٩٣٠ هجرية / ١٥٠٢ — ١٥٢٤ م) فاتخذ مدينة تبريز عاصمة لدولته بعد أن هزم قبائل التركمان سنة ١٥٠٢م . وفى أثناء حكم ملوك هذه الأسرة توحدت الأقاليم الايرانية ، وأشهر ملوكها الشاه عباس (٩٩٧ — ١٠٣٧ هـ / ١٥٨٧ — ١٦٢٨ م) وفى عهده ارتقت الفنون والآداب .

فنون العمارة عند العرب

يعد من الصعب أن نجمع فى هذا الكتاب مبانى العــرب فى سورية ومصر والعراق وايران والأفغانستان والهند وبلاد المغرب الأقصى (مراكش) والمغرب الأدنى (الجزائر) وافريقية (تونس) والأندلس وصقلية فى بحث عام ؛ ففى كتب تاريخ الفنــون مجال واسع للمتخصصين . ويكفينا فى هذا المقام أن نعلم أن تطور الفنون الاســلامية وازدهارها يرجع الى نشاط الأسرات الحاكمة والظروف التى أحاطت بها . وعــلى هذا الأساس يمكن أن نقسمها الى طرز ومدارس فنية تعرف بالطــراز الأموى فى الشرق ، والطراز الأموى فى الغــرب ، والطــراز العباسى ، والطراز الفاطمى ، والطــراز الســلجوقى ، والطــراز الايرانى المغــولى (التترى) ، والطراز المملوكى ، والطــراز الاســبانى

المغربى ، والطراز الصفوى ، والطراز المغولى الهندى ، والطراز التركى .

ويلزمنا أن نعرف أيضا أن الفنانين العرب كانوا ينتقلون فى أنحاء الامبراطورية الاسلامية أو يدعون من مكان الى آخر ، مما كان له الأثر الأكبر فى التقريب بين الطرز وتأثر بعضها بالبعض الآخر .

وليس من الصعب علينا بعد ذلك أن نعلم أن حضارة وفنون العرب ان اختلفت فانما يكون اختلافها باختلاف الأقاليم التى قامت فيها ، ولكن هذا لا يعنى صحة ادعاء من يقولون مثلا : ان عمارة المساجد فى القاهرة تشبه أبنية المصريين القدماء . وعلى رغم التباين الواضح بين عناصر البناء الفرعونى والبناء الاسلامى ، فليس هناك ما يدل على وجود اقتباس أو وجه شبه بينهما ، علاوة على أن البناء العربى فى مصر لا يخضع لطراز واحد ، فمنه الطراز العباسى — الأيوبى ، والطراز الفاطمى ، والطراز المملوكى ، ثم الطراز التركى ، ولكل من هذه الطرز سماتها ومميزاتها . كما لا يمكن كذلك أن نغفل المصدرين الأولين فى فن العمارة العربى وهما :

البناء البيزنطى والبناء الفارسى ، كخطوة أعقبها نمو مستمر لطرز مستقلة ومبتكرة .

وكان من نتائج انتشار العرب ، ودخول الأمم الكثيرة فى الديانة الاسلامية ، وتنافس الحكام فى شتى الولايات ، وتسابقهم فى التعمير وانشاء المدن ، واقامة الحصون والسدود والقناطر ، وبناء المساجد والمدارس والقصور ، ما أدى الى تكوين طرز عربية مبتكرة تجمعها وحدة الدين .

والقول بأن تلك الطرز لم تكن مبتكرة كل الابتكار ، بل كانت عناصرها مستعارة من أنماط كانت معروفة فى ظل الحضارات التى كانت قائمة من قبل الاسلام فى تلك الأقاليم ، هو قول يحتاج منا أن ننوه بقدرة العرب على استساغة الفنون والتدرب عليها وحذقها . ومما يجدر ان العرب — خلافا لكثير من الأمم التى جاءت من بعدهم — كانوا يحترمون آثار الأقاليم التى فتحوها كما استطاعوا الرقى بها تدريجا الى أن بلغوا بفنون العمارة أرقى ما بلغته الشعوب العريقة فى الحضارة .

ومن هـذا نجـد أن التطور والابتكار تتجـا عن انتقال الأساليب والأنماط التى مارسها العرب من اقليم الى آخر فى رقعة الامبراطورية الاسلامية الواسعة . وأدى تطور الأحداث السياسية والاجتماعية وممارسة الصناع العرب هذه الحرف والصناعات الفنية ، ومزجها والتأليف بينها ، الى تشابهها فى جملتها بحيث أصبح من العسير على غير الخبراء تمييز مصادر تفاصيلها الدقيقة .

وظلت الفنون العربية الاسلامية أبقى وأوسـع الفنون انتشارا ، وكان فن البناء أرسخ هـذه الفنون وأكثرها اتصالا بطبيعة الاقليم الذى نشأ فيه . والبناء هو طبيعة ثانية ، ويستمد عناصره من البيئة التى يغرس فيها .

ولم يكن البناء اذن أمرا شاقا على نفوس العرب بعد أن رأوا كيف كانت تشيد القصور والكنائس البيزنطية فى سـورية ومصر ، فأخـذوا منهـا ما يلائم الدين الاسلامى ، وأضافوا اليه ما يحتاجونه فى بناء المساجد والأضرحة والايوانات [1] والمآذن والمحاريب والمنابر .

---

(١) مفردها ايوان وهو رواق مسقوف للوقاية يحيط بالصحن المكشوف، ويشيد على هيئة أقواس مرفوعة على =

والفن البيزنطى فى أصـــله فن رومانى تغلب عليه عناصر شرقية قديمة من بقايا فنون الآشوريين والفرس مثل القبة ، والأقواس على هيئة نصف دائرة ، وأشغال الفسيفساء ، والميل الى الألوان الزاهيـــة ذات البريق المتـــألق .

ولم يلبث العرب بعـــد أن تحرروا من المؤثرات الأجنبية ، أن تجلت عبقريتهم فى ايجاد طابع عام يتميز على فنون العمـــارة الأوروبيـــة الحزينة ، بالجمـــال والنضـــارة والبهـــاء ، والتفنن فى الزخـــارف فى أدق الجزئيات لتزين البناء من الداخل والخارج .

وعلينا أن نعلم أن كل طراز معمـارى فى أى زمن من الأزمنة ، وعند أى شعب من الشعوب انما يخضع لعاملين جوهريين :

أولا : الرمزية ، أى مايتبع الميل والاختيار والتفضيل .
ثانيا : العضوية ، أى ماتقدمه الأرض من مواد صالحة للبناء .

= عمد مستديرة الأبدان أو مربعة الأضلاع ذات تيجـان وقواعد .

ومن الأمثلة على الرمزية ، أن البناء الفارسى يتميز بالألوان الخلابة ، والرقة التى لا تخلو من تعقيد ، وفى اسبانيا نراه غارقا فى ثروة هائلة من مجموعة الخطوط وبهاء الأصباغ وفخامة الزخرف ، بينما نراه فى مصر يبدو محاطا بالوقار والجلال فى غير اسراف فى الزخرف أو اللون . وهذه المميزات تتبع الذوق والرغبة والاختيار .

ومن الأمثلة على العضوية ، أن حضارة الكلدانيين والآشوريين والبابليين التى قامت على ضفاف بلاد النهرين (العراق) التى كان اليونانيون يسمونها « ميزوپوتاميا » كان قوامها اللبن والطمى المحروق والخشب لانعدام وجود الحجارة . وأدت هذه المواد الطبيعية الى ابداع عناصر فنية مبتكرة ، منها بناء القبة ، والعقد المنحنى على شكل نصف دائرة ، وتشييد البروج من سبع طباق ، واستعمال مربعات من الآجر الملون (القاشانى) والمزخرف ، لتغطية الجدران المبنية من الطمى وتقويتها .

وكذلك فعل العرب فى أول عهدهم بالبناء ، فكانت

مادتهم الأولى الطمى والخشب ، كما أنهم أبوا السخرة ، فلم يفعلوا ما كان يفعله الرومان باستخدام الرقيق والأسارى فى بناء معابدهم .

ثم لم يلبث العرب بعد أن رأوا الكنائس البيزنطية بعظمتها وفخامتها ، أن طالبوا بأن تكون مساجدهم أكثر روعة وضخامة وجمالا .

الطراز الأموى
العمارة الدينية والمدنية

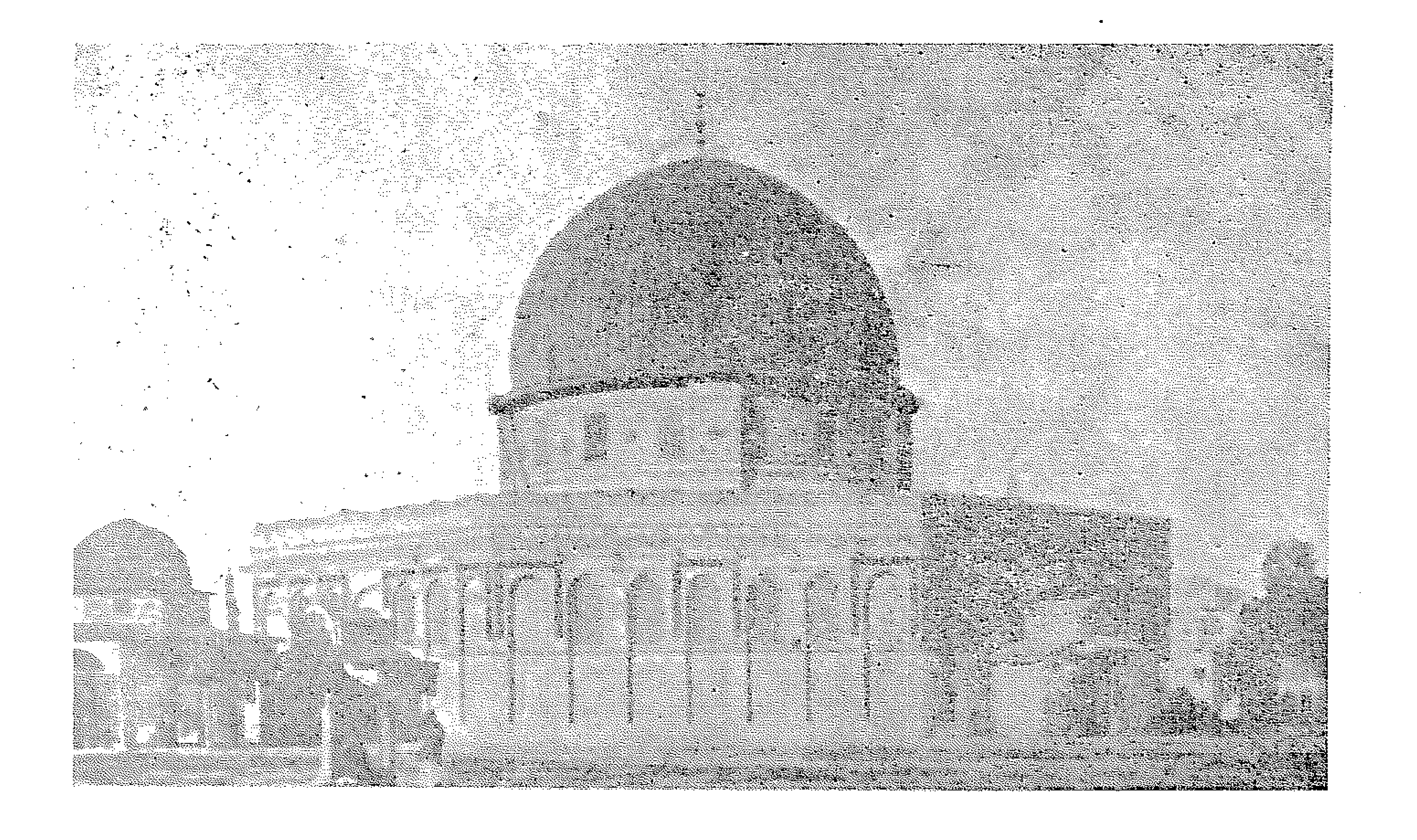
بعد أن تم فتح القدس سنة ١٧ من الهجرة (٦٣٨م) أقام عبد الملك بن مروان فى سنة ٧٢ هـ (٦٩١ م) — على مقربة من المسجد البسيط الذى بناه عمر بن الخطاب — أول وأبدع بناء اسلامى ضخم من الحجر حول صخرة [1] تتوسطه ، طولها ١٨ مترا وعرضها ١٣ مترا وارتفاعها عن سطح الأرض متر ونصف متر . ويعتبر مسجد عمر أو قبة الصخرة من بيت

---

(١) قيل أن ابراهيم عليه السلام هم بذبح ابنه اسماعيل على هذه الصخرة امتثالا لأمر الله ، وأن سليمان الحكيم أقام عليها هيكلا جدده من بعده الملك هيرودوس ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام وضع قدمه عليه عندما أسرى به .

المقدس مثالا نادر الوجود فى العمائر الاسلامية من حيث جماله وفخامته (شكل رقم ١) .

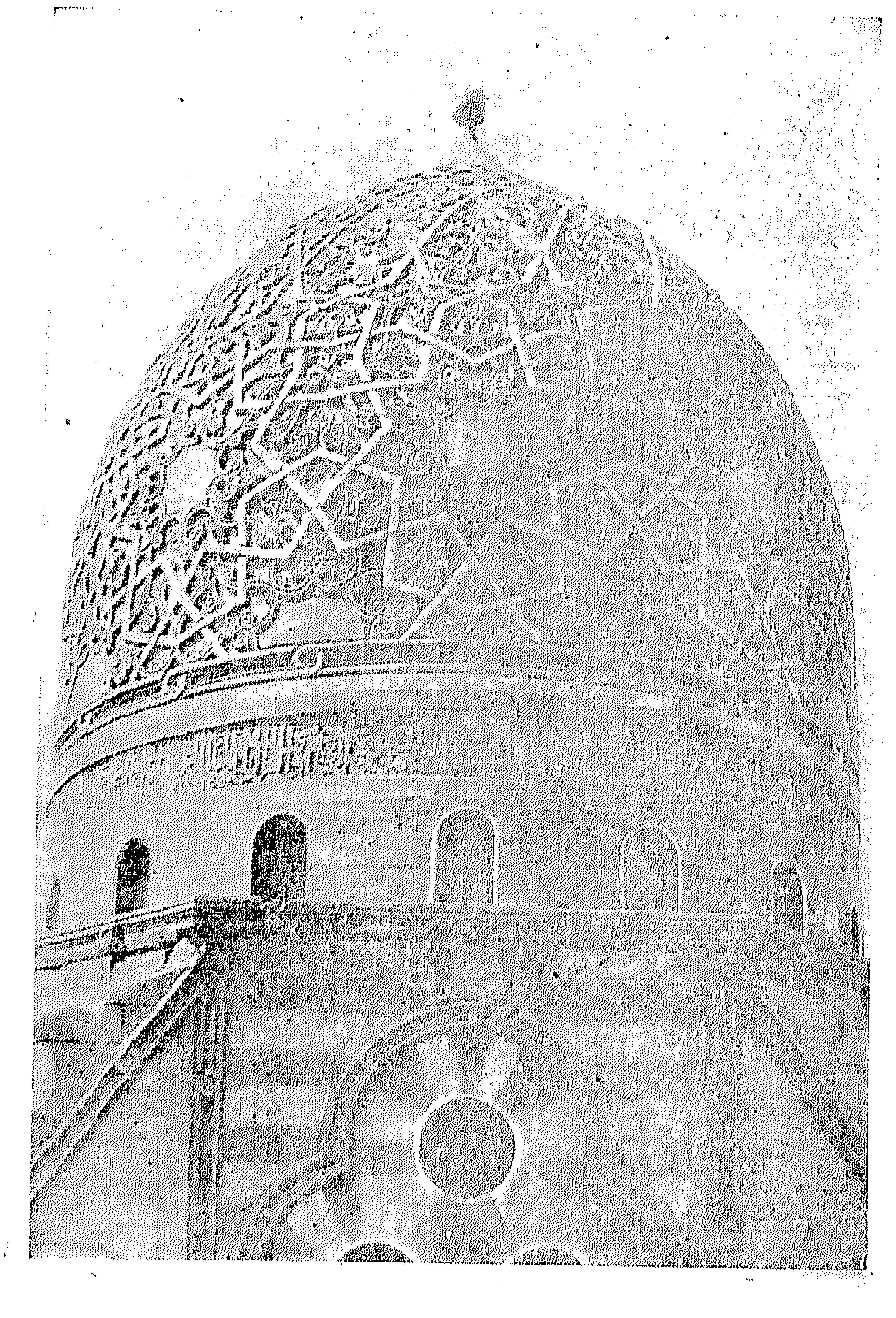
ويقوم بناء المسجد على قاعدة مثمنة الأضلاع ، طول كل ضلع منها عشرون مترا ، وارتفاعه تسعة أمتار . وبكل ضلع سبع نوافذ علوية مزينة بقطع من الزجاج الملون ، وموصولة بالبعض الآخر وصلا زخرفيا بالجص . ثم استبدل الجص بالرصاص فى الاصلاحات التى أدخلت على المسجد . وعلى الأضلاع المواجهة الجهات الأربع الأصلية تقع أربعة أبواب ، وفى داخل البناء ثمانية صروح تتكون من الأعمدة الدائرية التى تحمل عقودا على هيئة حدوة الفرس تعلوها القبة ، وفيما بين الصروح والجدران الخارجية رواق يقابله رواق آخر ، تزين سقوفهما رسوم هندسية ملونة ، وآيات قرآنية مذهبة بعضها من الفسيفساء وبعضها من الخشب المحفور ، وتزين الأعمدة تيجان زخارفها مستمدة من أوراق نبات الأكانتس ، والقبة الشاهقة مصنوعة من الخشب ، وتغطى سطحها الخارجى صحائف معدنية ، أما سطحها الداخلى فتزينه قطع الفسيفساء



شكل (١) مسجد قبة الصخرة ببيت المقدس (سنة ٦٩١ م .)

الملونة المثبتة عـلى سطح الملاط ، ويعلو القبة هـلال عظيم .

والجامع الأموى فى دمشق أقامه الوليد بن عبد الملك، وسماه « الخضراء » ، لقبة خضراء قامت عليه ، وكان مولعا بالتعمير والانشاء ، ودعى الى بنائه مهرة صناع العرب والبيزنطيين ، واستغرق بنـاء المسجد الجـامع عشر سنين من سنة ٨٦ الى سنة ٩٦ هـ (٧٠٥—٧١٤ م) ويقوم على ساحة كبيرة ذات زوايا قائمة ، ويتألف من صحن كبير تحيط به أروقة ذات طابقين ، الطابق الأسفل تحمله أعمدة مربعة الأضلاع (دعائم) وتعلوها أقواس على هيئة حدوة الفرس ، والطابق العلوى وبه نوافذ صغيرة تطل على الصحن وينفذ منها الضوء لينير داخل المسجد ، ولهذه النوافذ عقود مستديرة وكل نافذتين تعلوان عقد من الطابق السفلى . وظهور الأقواس من نوع حدوة الفرس فى الجـامع الأموى بدمشق ، يعـد من أقدم الحالات التى اتخذ فيها هذا النوع من الأقواس وظيفة معمارية ، وانتشر استعمالها بعد ذلك فى بلاد المغرب والأندلس وصقلية .



شكل (٢) قبة مسجد قايتباى (١٤٧٢ ـ ١٤٩٦م)

أما المحراب الذى يحدد اتجـاه المصلين صـوب الكعبة ، فيبدو أنه مستعار من حنية الهيكل بالكنيسة المسيحية[1] ، وهو لا يكاد يبلغ ضعف ارتفاع الانسان، وترصعه قطع من الحجـارة النـادرة ، واستعملت الفسيفساء فى تزيين سقوف المسجد وقبته والرخـام فى كسوة جدرانه ، وكانت به مصابيح يبلغ عددها ستمائة مصباح من النحاس المطعم بالذهب .

وكان بالجامع الأمـوى عنـد انشائه أربعة بروج كانت مستعملة كمآذن للصـلاة فى أوقاتها ، ولا تزال احداها باقية الى الآن ، وهى من أصل رومانى . ولقد استعملت المآذن فى الاسلام للدعـوة الى العبـادة ؛ ولتكون بديلا من دق الطبول عند المسيحيين ، أو نفخ الأبواق عند اليهود .

---

(١) ترتفع حنية المذبح بارتفاع بناء الكنيسـة ، ويوضع فيها الهيكل ، وتزين سطحهـا صـورة المسيح والقديسين . وبناء الكنيسة الكاثوليكيـة وكذلك حنية المذبح (فى الامبراطورية الرومانية الغربية) مأخوذ عن البازيليكا الرومانية الوثنية .

والمسجد الأقصى بناه عبد الملك بن مروان ببيت المقدس ، وكان بناؤه الأول [١] يتألف من عدة أروقة توازى محراب القبلة ، ويقسمها فى الوسط رواق عريض . ولقد أدخلت عليه تعديلات فى العصر العباسى جعلته يتحول عن طبيعة بنائه الأموى الأول ، ثم رممه صلاح الدين فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) ثم جددت بعض أجزائه فى القرن الخامس عشر من الميلاد .

ويشتمل المسجد الأقصى على أعمدة أخذت من مبان كثيرة ، ويحتوى على محراب أنيق مزين بالفسيفساء ، تدل كتابته على أن صلاح الدين هو الذى أنشأه ، ومنبره مصنوع من الخشب المطعم بالعاج والصدف . وكان من أثر هذه الاصلاحات الكثيرة أن اكتسب البناء مسحة عربية واختفت مع الزمن معالم الطراز البيزنطى التى كان عليها البناء أول ما أنشىء .

وفى المغرب كانت المبانى الدينية فى شمال افريقية

---

(١) أصل البناء كنيسة بيزنطية بناها الامبراطور جوستنيان تبجيلا للعذراء مريم قبل أن يحولها العرب الى مسجد .

تشبه فى تخطيطها الجامع الأموى بدمشق ، ولم يكن لها طابع مبتكر كالتى فى مصر أو الأندلس ، ومنها نذكر جامع القيروان الذى أنشأه عقبة بن نافع فاتح افريقية فى سنة ٥٥ هـ (٦٧٥ م) ، وجدّد بناؤه عدة مرات ، وجزء كبير منه يرجع الى الزيادة التى أضافها هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) وتعلو المسجد قبتان ، ومئذنته مربعة الأضلاع على هيئة برج من ثلاث طباق .

وجامع الزيتونة فى تونس كثير الشبه بالجامع الأموى ، وتم بناؤه سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) وأعيد فى عصر الدولة الأغلبية المراكشية .

أما جامع قرطبة فقد بدأ تشييده فى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) ، ثم تضاعف فى القرن الرابع الهجرى . ويحوى رواقه ٢٢٠ عمودا تحمل عقودا من نوع حدوة الفرس ، وأمكن اضافة عقود أخرى أعلى فى ارتفاعها ، وترتكز على نفس الأعمدة التى يرجح أنها كانت مستعملة فى الأبنية القديمة بتيجانها البيزنطية الطراز .

وازدانت دمشق بالعمائر الدينية والمدنية فى عهد

الأمويين ، وحرص كل خليفة على أن يبقى فيها أثرا .

والعمائر المدنية فى بادية الشام وان كانت قد أصبحت أطلالا ، الا أن ما يلفت النظر فيها برج ببلدة « الرملة » أقيم فيها سنة ٧٠٠ هـ (١٣١٠ م) ويسمى « برج الشهداء » ، ويقال ان ابن السلطان قلاوون هو الذى بناه لأربعين شهيدا من المسلمين دفنوا فيه أثناء الحروب الصليبية ، ويعتبر نصبا تذكاريا فريدا من نوعه فى العمائر الاسلامية ، وهو بناء مربع الشكل يبلغ ارتفاعه مائة وعشرين درجة ، ويدخله الضوء من نوافذ ذات أقواس مدببة .

وقصير عمره [1] هو قصر صغير أعد ليكون استراحة للصيد ، وبه حمام مكون من ثلاث قاعات ذات قباب ، ويحوى قاعة مستطيلة يقسمها عقدان الى ثلاثة أروقة ذات سقوف نصف دائرية ، ويتصل الرواق الأول

---

(١) يرجع بناؤه الى الفترة الواقعة بين معركة « شريش » فى الاندلس سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) أو سقوط «سمرقند» سنة ٩٣ هـ (٧١٢ م) أو وفاة الوليد الأول سنة ٩٦ هـ (٧١٥ م) .

بغرفتين صغيرتين . وكانت تزين جدرانه رسوم الراقصات ، وأخرى ترمز الى عقائد اليونان فى أرباب الشعر والفلسفة والتاريخ والحروب ، وأخرى ترمز الى مراحل العمر الثلاث ، علاوة على رسوم الطيور والحيوان والزخارف النباتية ، وقبة السماء بنجومها وبروجها ، كما حرص الخليفة أن تنقش صورته على جدران القصير ، وفى رسوم أخرى تشاهد صور أعداء الاسلام فى ذلك الزمان ، ومن بينهم قيصر الروم ، و « رودوريك » Don Rodorigo آخر ملوك القوط الذى مات غرقا أمام زحف طارق بن زياد فى الأندلس سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) و « كسرى » ملك الفرس .

وحمام الصرخ ، الذى يقع على بعد اثنى عشر ميلا شمال مدينة عمان ، يشبه فى تخطيطه قصير عمره ، والأرجح أنه بنى بعد القصير بما يقرب من عشر سنين . والعناصر المعمارية التى استخدمت فى البنائين تدل على أنها كانت تسير على نهج كان معروفا بالشام فى القرن السادس الميلادى ومنها العقد المدبب .

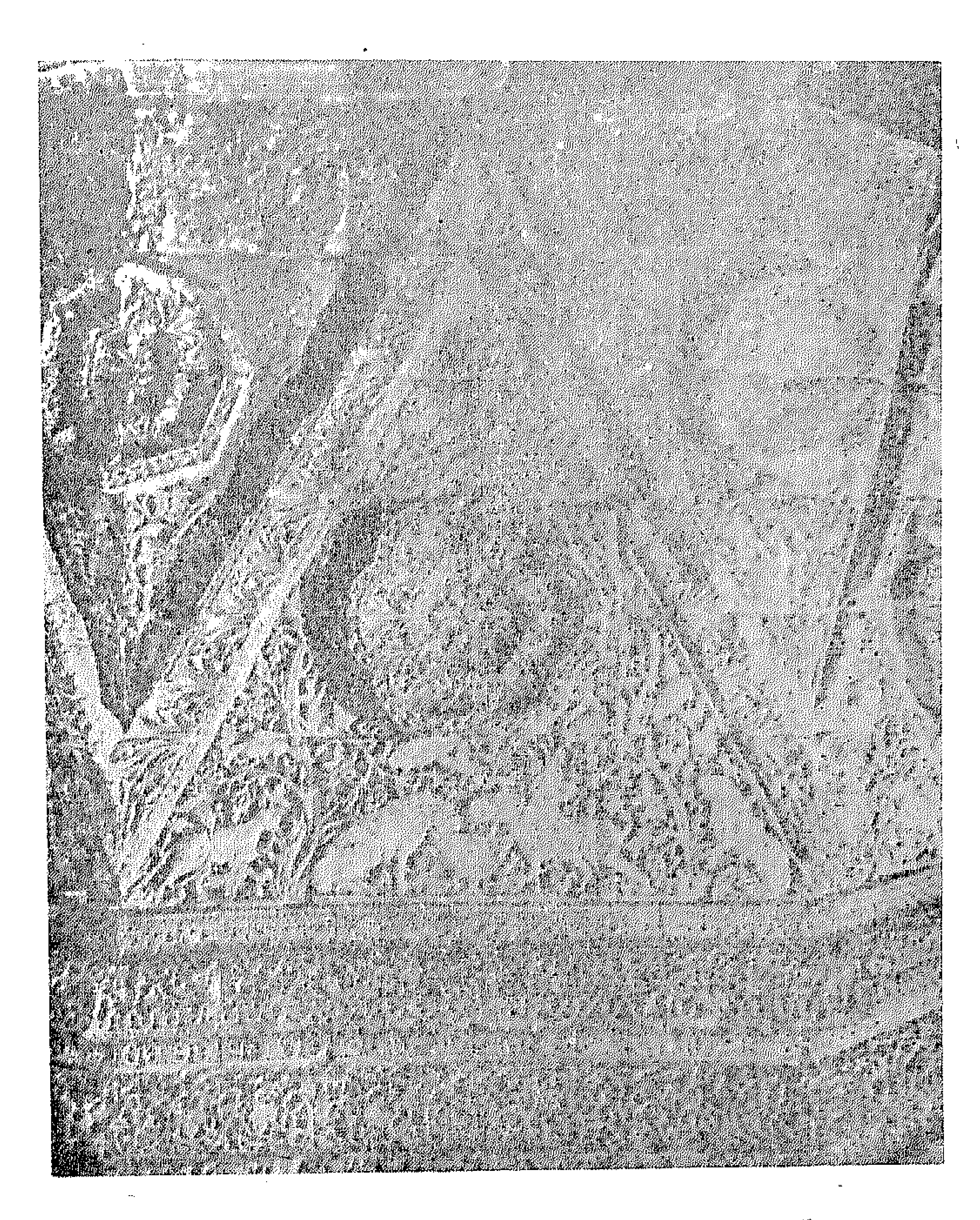
وعلى بعد عشرين ميلا جنوب عمان أطلال قصر

المشتى (شكل رقم ٣) ، وكانت بواجهة مدخله زخارف محفورة فى الحجر الجيرى بارتفاع ستة أمتار [1] ، وجدران القصر والأقبية من الآجر والحجر الجيرى ، وأعمدته من الرخام . ويرجح أن هذا القصر بنى فى العصر الأموى فى عهد يزيد الثانى فيما بين سنتى ١٠١ و ١٠٥ هجرية (٧٢٠ — ٧٢٤ م) أو الوليد الثانى فيما بين سنتى ١٢٥ و ١٢٦ هجرية (٧٤٣ — ٧٤٤ م) .

وهناك قصور أخرى مثل قصر الطوبة ، وقصر الحير الشرقى ، وقصر الحير الغربى ، وقصر هشام بشمال أريحا .

---

(١) توجد أجزاء من تلك الزخارف الآن بمتحف القيصر فريدريك فى برلين منذ سنة ١٩٠٣ وهى عبارة عن نقوش لفروع نباتية وعناقيد عنب وطيور وحيوانات .



شكل (٣) نحوت بارزة على جدران قصر المشتى

الطراز العباسى
العمارة الدينية والمدنية
فى بغداد والقاهرة والمغرب

عندما تم النصر للعـــرب على دولة الســاسانيين الفارسية[1] استولوا على أصبهان فى عهد عمر ابن الخطاب سنة ٢٢ هـ (٦٤٥ م) ووجدوا أنفسهم تجاه حضارة عريقة مكنتهم من اقتباس الكثير من فنونهم ،

---

(١) تعتبر الدولة الساسانية آخر الدول الفارسية التى قاومت الفتح العربى ، وأول ملوكها «اردشير بن بابك» (٢٢٦ ــ ٢٤١ م) وآخرهم « يزدجرد » (٦٣٢ ــ ٦٥٢ م) الذى قاوم الفتح العربى الى أن تغلغل المسلمون فى فتوحاتهم وانتشروا فى أرجاء البلاد الفارسية ، كما انتقل الفرس بدورهم الى البلاد العربية بحـــكم الجوار ، الى أن جاءت الدعوة العباسية ، فهيأت الأسباب ليأخذ الفرس مكانتهم فى الأمة الاسلامية ، بعد أن وجدوا فى الاسلام مخلصا من الاضطهاد ، وملاذا ونجاة من عبادة النار .

وسرعان ما أصبحت بغــداد فى طليعة البـــلاد المعنية بالحضارات والفنون الاسلامية .

وأهم ما خلفه الطراز العباسى جامع ســامرا وتم تشييده فى عصر المتوكل فيما بين عامى ٢٣٤ و ٢٣٧ هـ (٨٤٩ — ٨٥٢ م) ليسع ثمانين ألفا من المصــلين ، ويقوم بناؤه على هيئة مستطيل يحيط به سور ضخم مدعم بأربعين برجا ، ويحمل سقف الجامع أعمدة من الرخام ، وجدرانه مبنية من الآجر ويكسوها الجص المرصع بقطع الفسيفساء والزجاج الملون ، وله مئذنة حلزونية عــلى شكل مخروط ، ولم يبق من هذا الجامع الآن الا سوره الخارجى .

وفى القاهرة شيد أحمد بن طولون جامعه المشهور ، وتم بناؤه سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) ، وهو أروع بنــاء باق من الطراز العباسى . وتحيط الصحن المربع الكبير أربعة أروقة ، خصص أكبرها للقبلة ، ثم زيدت الأروقة بثلاثة خارجية ، وعقودها تحملها دعائم ضخمة ، وتقع الميضأة فى وسط الصحن المربع المكشوف ، وبنــاؤها شيد على قاعدة مربعة ، وله أربعة أبواب وتعلوه قبــة

مشيدة على قاعدة مثمنة الأضلاع هرمية الشكل ذات ثلاث درجات ، أما المنارة فشكلها حلزونى مدرج . واستعمل الآجر فى بناء الجامع مع تغطيته بطبقة سميكة من الجص عليها زخارف هندسية ونباتية .

وفى عهد خلافة هارون الرشيد نازع البربر فى بلاد المغرب سلطان العباسيين ، وانتهى النزاع الى تولى ابراهيم بن الأغلب امارتها برضى الخليفة العباسى ، وكان لهذه الصلة أثرها فى ازدهار الفنون العباسية فى شمال افريقية فيما بين سنتى ١٨٤ و ٢٩٦ هـ (٨٠٠ — ٩٠٩ م) .

وشيد ابراهيم بن الأغلب مؤسس الأسرة الأغلبية القصر الأبيض بالعباسية التى اتخذها عاصمة له ، وتبعد عن القيروان نحو ثلاثة أميال .

كما أعاد زيادة الله الأغلبى — الذى فتح جزيرة صقلية — بناء جامع القيروان ، وأضاف اليه المحراب وكسى جدرانه بالقاشانى المزخرف والمذهّب ، واستحضر اليه الصناع المتخصصين من بغداد ..

وتعتبر مدة خلافة أبى جعفر المنصور التى تقرب

من اثنتين وعشرين سنة (١٣٦ — ١٥٨ هـ / ٧٥٤ — ٧٧٥ م) أهم عصور العباسيين بعد أن استقرت الخلافة لهم على يد أبى العباس ، فشيد المنصور الكثير من المدن وجمّلها بالقصور الفخمة .

وشيد أول ما شيد مدينة بغداد فى سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ، وقد ورد أن اسمها مشتق من « بغ » ومعناها البستان ، و « داد » ومعناها مدينة ، ويسمونها كذلك « مدينة السلام » . ولقد استقدم لها المنصور مائة ألف مهندس وصانع ، وأقامها على أساس دائرى .

وتدرجت بغداد فى العمران ، وأقيمت بها المبانى الشاهقة والقصور الفخمة ، منها قصر الخلد ، وقصر القبة الخضراء وخصص للضيافة ، وكان على قمته تمثال فارس يحمل رمحا ويتحرك مع الريح .

ثم بنى مدينة « الرصافة » فى مواجهة بغداد على الضفة المقابلة لنهر الدجلة ، وسرعان ما اتسعت رقعتها واتصلت ببغداد وتضاعفت مساحتها كما بنى مدينة «الكرخ» جنوبى بغداد ونقل اليها الأسواق ، وأصبحت

بغداد فى عصر المنصور وخلفائه مسرحا للحضـــارة والعمران ومركزا لنهضة علمية وفنية كبرى .

وهارون الرشيد هو أشهر خلفاء العباسيين وأحبهم للفنون ، وكان مثـالا الكرم والجـود ، وكان بينه وبين شرلمان ملك الفـرنج عـلاقات صداقة ومودة ، وتبـادلا الهـدايا والسـفراء ، ولا تزال سـيرة الساعة الدقاقة المائية التى ظنـوا أنهـا آلة سحرية ، والفيل الذى أرسـله الى شارلمان بمقره فى « اكس لاشابل » ، حديث كتب التاريخ الأوروپية التى تتناول حضارة العرب فى بلاط هارون (١٧٠ — ١٩٣ هـ / ٧٨٦ — ٨٠٩ م) .

وكان رجال الفن والأدب من يونان وفرس وأقباط ، يفدون على بغداد ويحيطون بالمأمون بن هارون (١٩٨ — ٢١٨ هـ / ٨١٣ — ٨٣٣ م) ، الذى كان يعدهم عونا على البلوغ ببغداد الى أرقى وأرفع مراكز الثقافة فى العالم . ويروى المؤرخ العربى أبو الفداء حفـل استقبال الخليفة العباسى لسفير الروم فى سنة ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) فيقول : « عندما قدم رسول الروم وصحبه

الى بغداد ، حشدت لهم الجنود صفوفا حتى بلغ عددها مائة ألف من الفرسان وستين ألفا من المشاة ، واصطف الغلمان والخصيان فى أجمل زينتهم وكانوا أربعة آلاف خادم أبيض وثلاثة آلاف خادم أســود ، وبلغ عــدد الحجّاب سبعمائة حاجب ، وزينت دار الخلافة والمراكب فى نهر دجلة بأعظم زينة ، وأرخيت السّتور من الديباج الملون والمذهب وكانت تبلغ ثمانيا وثلاثين ألف ستار ، وفرشت الأرض باثنين وعشرين ألف بســاط ، وزينت الحدائق والأشجار ، وأقيمت فى وســطها شجرة من الذهب والفضة بأوراقها وأغصانها الثمانية عشر تتمايل بحركات مرتبة ، وكانت تقف على الأغصان أنواع من الطيور والعصافير من الذهب والفضة ، تزقزق وتصفر أنغاما ، وكان هناك أيضا مائة أسد مع مروضيها . كما شاهد المبعوثون الروم من قوة الخلفاء الحربية ما أذهل عقل أمبراطور بيزنطة الوارث لمجد الروم عندما سمع بها فأكره على دفع الجزية .

وقصر أخيضر من القصور التى بنيت فى القرن الثالث الهجرى (التاسع للميلاد) جنوب غرب كربلاء ، وهو

كثير الشبه بقصر المشتى الأموى ، وعقوده من النوعين المستدير والمدبب .

وفى عصر المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ — ٨٦١ م) بنى « قصر بلكوارا » و « قصر العاشق » على بعــد ستة كيلو مترات جنوبى سامرا و « قصر المناذرة » بالحيرة ، ويبدو فيها تأثر العباسيين بالأساليب المعمارية الفارسية فى « قصر كسرى » الذى لا تزال أنقاضه قائمة بمدينة « إكتيسيفون » على نهر دجلة ، وتخطيط هــذه القصور على مستطيل له ثلاثة أروقة تنتهى بقاعة العــرش ، وقوام الزخــارف فيها جصية ورســوم ملونة بالألوان المائيــة ، والفسيفساء وقطع الزجاج الملون .

ويتكامل الطراز العباسى بظهور المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ / ٨٣٣ — ٨٤٢ م) الذى شيد مدينة ســماها « سر من رأى » شمالى بغداد ، وجمع لها البنائين ورجال الصناعات الدقيقة وأهل الخبرة والهندسة من جميــع أنحاء الدولة الاسلامية وجعلها آية العباسيين الفنية ، وشيد فيها الأسواق ، والقطائع للجند وأصحاب الحرف

وسائر أفراد الشعب ، والميادين ذات البساتين والبحيرات ، وبنى فيها القصور ومنها « قصر الجوسق » ، واتخذها عاصمته وزادها من جاء بعده جمالا ، فبنى ابنه الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ / ٨٤٢ — ٨٤٧ م) بها « قصر الهاروني » .

وشيد المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ — ٨٦١ م) « قصر العروس » ثم « قصر المختار » و « القصر الوحيد » و « القصر الجعفرى » ليصل مدينة سامرا بمدينته الجديدة الجعفرية ، وغطيت جدران القصور بالزخارف الجصية البارزة والمحفورة ، ورسوم آدمية وحيوانية بالألوان المائية منها صور أسماك تسبح فى الماء وراقصات وفرسان ومناظر الصيد .

الطراز الفاطمى

العمارة الدينية والمدنية في القاهرة والاسكندرية

كان من أهم ما اتجه اليه نظر ولاة المسلمين ، بعد أن تم لهم فتح البلاد ، تأسيس حاضرة جديدة تفى بأغراض الدولة الناشئة .

وفى مصر اتخذ جوهر القائد فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هجرية (٩٦٧ — ٩٦٨ م) موقع القاهرة ؛ لتكون حاضرة الفاطميين [١] — وهى لا تزال الى اليوم

---

(١) لما قدم المعز لدين الله الفاطمى الى مصر اتخذ القاهرة مقرا لخلافته فى ١٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣م) . والمعز هو رابع الخلفاء العبيديين بالمغرب وهو الذى عهد الى جوهر بفتح مصر عندما تولى الحكم فى سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) بعد أبيه المنصور بنصر الله .

عاصمة الاقليم المصرى — بدلا من مدينة الفسطاط التى أسسها عمرو بن العاص عند فتح مصر ، وجاء من بعد عمرو صالح بن على العباسى فأقام مع أبى عون مدينة العسكر ، ثم أحمد بن طولون فأسس مدينة القطائع ، أما القاهرة فهى الموقع الذى اتخذه جوهر القائد حاضرة للدولة الفاطمية وسمّاها باسم « المنصورية » التى أسسها خارج مدينة القيروان المنصور بنصر الله والد الخليفة المعز لدين الله .

وفى يوم السبت الرابع عشر من شهر رمضان سنة ٣٥٩ هجرية ، وضع جوهر الحجر الأساسى فى الجامع الأزهر ، واستغرق بناؤه سنتين ، وأقيمت فيه الصلاة الجامعة لأول مرة فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١ هجرية (٩٧١ م) .

ويشتمل الجامع على صحن كبير غير مسقوف تحوطه أروقة مسقوفة تحملها أعمدة ، ومقصورة بناها جوهر ورفعها على ٧٦ عمودا من الرخام ، ومقصورة

ثانية ترتفع على الأولى على أعمدة يبلغ عددها خمسين عمودا من الرخام كذلك بالاضافة الى أعمدة الصحن يصبح بالجامع الأزهر ثلاثمائة وثمانون عمودا .

ولقد أنشأ جوهر بالمقصورة القديمة محرابا للقبلة ، ثم أقيمت تسعة محاريب أخرى وأبقاها اثنان . وبالجامع منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع ، ونقل فيما بعد الى جامع الحاكم .

وفى عصر المماليك أنشأ السلطان قايتباى المئذنة الثانية [1] بالجامع ، وتقع على يمين الباب بين المدرسة الاقبغاوية [2] والمدرسة الطيبرسية [3] ، ثم أنشأ

---

(١) تقع بجوار الباب الغربى الذى جدده السلطان قايتباى وأقام مئذنته حوالى سنة ٨٨١ هـ (١٤٧٦ م) .

(٢) أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد ، فى عصر الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) .

(٣) انشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازندارى قائد الجيوش فى عصر الناصر محمد بن قلاوون ، وتمت فى سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ م)

السلطان الغورى المدرسة الجوهرية [1] والمئذنة ذات الرأسين [2] .

وأول درس ألقى بالجامع الأزهر [3] كان فى شهر صفر سنة ٣٦٥ هجرية (٩٧٥ م) ، ولم يلبث الجامع الأزهر أن أصبح جامعة اسلامية كبرى ، يأتيها الطلاب من كل حدب وصوب لتلقى علوم الدين . ولقد زاد فى بناء الجامع كثير ممن ولوا مصر بعد المعز حتى بلغت مساحته ١٢٠٫٠٠٠ متر مربع (شكل رقم ٤) .

وعندما تولى العزيز بالله بن المعز لدين الله الخلافة الفاطمية (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ — ٩٩٦ م) أمر بتشييد جامع فى سنة ٣٨٠ هجرية وصلى فيه فى السنة التالية ، وتوفى العزيز قبل أن يتم بناءه ، وعندما تولى

---

(١) أنشأها الأمير جوهر القنقبائى (خازندار) المشرف على خزينة الملك الأشرف برسباى أنشئت حوالى ٨٤٠ هـ (١٤٣٦ م) .

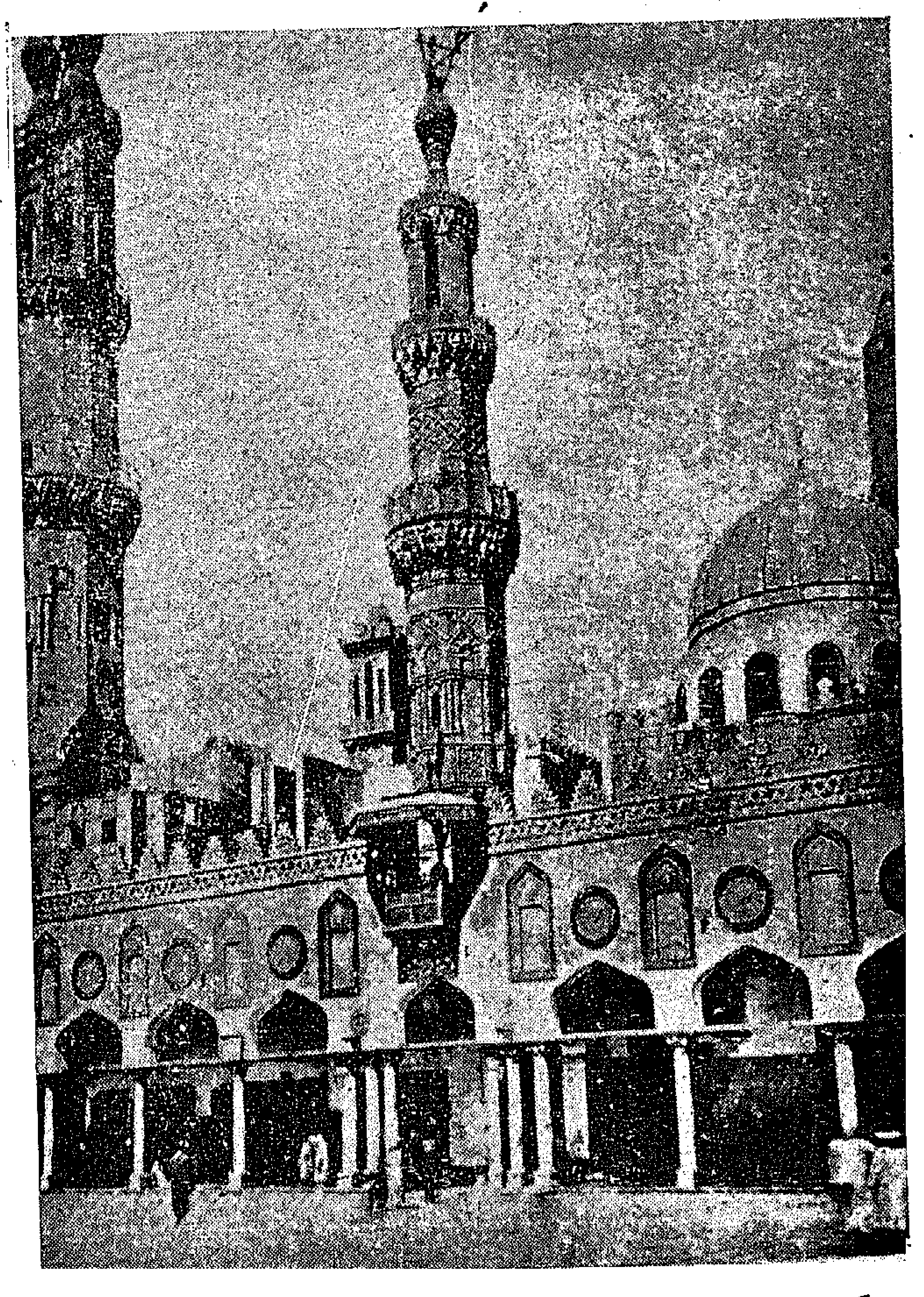
(٢) فى سنة ٩١٥ هـ (١٥١٠ م) أمر السلطان قانصوه الغورى ببنائها وبدن دورتها الثانية مغطى بالقشانى .

(٣) ألقاه القاضى على بن نعمان فى فقه الشيعة .

ابنه الحاكم بأمر الله أمــر باتمامه وسمى باســمه فى ســنة ٤٣٠ هجرية (١٠١٣ م) . ويبدو جامع الحاكم قريب الشبه من جامع أحمد بن طولون من حيث تخطيطه ومواد بنائه ، الا أن لجامع الحاكم قبتين احداهما مثمنة الأضلاع ، والثانية اسطوانية تتوسطهما قبة ثالثة فوق المحــراب القديم . أما المدخل البارز البنــاء فيتوسط المئذنتين .

وفى عهد الخليفة الآمــر بأحكام الله شــيد جامع الأقمر سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ، وواجهته الغــربية كانت من أغنى واجهات المساجد بالزخارف المتنــــوعة والمقرنصات البديعة الصــنع ، وسقفه مغطى بقبــوات صغيرة .

وتم جامع الصالح طلائع فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠م)، وهو آخر الجوامع الفاطمية الكبيرة ، وسمى باســم الوزير الذى سمى نفسه « الملك الصــالح طلائع بن رزيك» لضعف سلطان الخليفة الفائز بنصر الله . ومدخل الجــامع الرئيسى يقع بالواجهة الغربية ، ويصل الى رواق قائم على أربعة أعمدة ، وتعلو عقود الايوانات



شكل (٤) فناء الجامع الأزهر ومئـــذنتى جامعى الغورى وقايتباى

الأربعة المحمولة على عمد من الرخام نوافذ صغيرة تزينها زخارف نباتية ، أما العقود فزخارفها هندسية وكتاباتها كوفية على شكل الأزهار .

وعهدت « تغريد » زوجة المعز لدين الله فى سنة ٣٦٦ هجرية (٩٧٦ — ٩٧٧ م) الى الحسن بن عبد العزيز الفارسى بناء مسجد القرافة واستحضرت الفنانين من البصرة لزخرفته ، وأحاطته ببستان جميل وأربعة عشر بابا توصل الى مقصورته ، كما عهدت الى الحسن بن عبد العزيز كذلك أن يبنى لها قصرا يتصل ببستان وحمام ، ويقول المقريزى فى وصفه : ان اثنين من المصورين كانا يتنافسان للفوز برعاية الوزير ، فصوّر القصير راقصة فى ثياب بيضاء ، على رقعة سوداء تحفها من كل جانب ، لتزيدها تجسيما وحيوية ، وصوّر ابن عزيز العراقى فتاة أخرى فى ثياب حمراء على رقعة صفراء ، ونالا اعجاب الوزير فخلع عليهما ووهبهما ذهبا كثيرا . ويقول المقريزى كذلك : ان بقصر القرافة صورة تمثل يوسف عليه السلام

يستريح فى الجب ، ونسبها الى « الكتامى » أحد رسامى جامع القرافة .

وفى الاسكندرية أنشئت مدرستان فى أواخر العصر الفاطمى لتدريس المذهب السنى . وتصميم المدرسة يقوم على ايوانين أو أربعة ايوانات متقابلة ، وفى وسطها صحن مكشوف تتوسطه نافورة المياه ، ويلحق بالمدرسة مساكن الطلبة ومدفن لمنشئها .

وأهم العمائر المدنية التى أنشئت فى العصر الفاطمى فى مصر أسوار القاهرة ، وكان لها سبعة أبواب لم يبق منها سوى ثلاثة : « باب زويلة » ويقع فى الجنوب ، و « باب الفتوح » و « باب النصر » ويقعان فى الشمال، ولكل باب برجان كبيران على الجانبين [1] منقوش عليهما آلات ومعدات القتال .

---

(١) تعلو الأبراج مشربيات ، وهى على هيئة دعائم منفصلة ومتقاربة عليها نتوءات بارزة ، وكان الجنود يحتمون من ورائها كاستحكامات للدفاع عن المدينة وليصوبوا سهامهم من الفتحات بين هذه الدعائم الى الأعداء، والأمثلة على هذه الظاهرة المعمارية تشاهد أعلى برجى =

وبعد أربع سنوات على تأسيس مدينة «المنصورية»، أطلق عليها المعز لدين الله عنـدما قدم الى مصر فى سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) اسم القاهرة .

ولم يتبق من قصور الفاطميين فى القـاهرة شىء ، ومن المعروف أن العمائر فى صقلية كانت متأثرة بأساليب البنـاء الفاطمى حتى زوال حكم المسلمين فيها . ومن العمائر التى شيدها « النورمانديون » فى جزيرة صقلية على نفس الطراز الفاطمى قصر القبة ، وقصر العزيزة ، وكنيسة « الكابلا بالاتينا » فى القصر الملكى فى بالرمو، وكنيسة « مارتورانا » .

ويصف المقريزى قصر المعز لدين الله الفاطمى ، الذى أعده له قائده جوهر ، فيقول : وفى احدى قاعات القصر ايوان العـــرش الذى كان به من الذهب ما زنتـه ١١٠٫٠٠٠ من المثاقيل ، ورصع الستر بألف وخمسمائة وستين قطعة من الجواهر المختلفة الألوان والأحجام كما

= باب النصر • ولقد شـاع اسـتعمال هذه المشربيات Machicolation فى مبانى انقلاع والقصـور الايطالية والفرنسية فى العصر الوسيط .

حلى بما زنته ٣٠٠٫٠٠٠ مثقال من الذهب ، ووضع أمام الايوان قطعة من الجلد على هيئة درقة مرصعة بالأحجار الكريمة ، كان لانعكاس أشعة الشمس عليها بريق يخطف الأبصار وينشر الضوء من حولها .

وبلغت ثروة مصر فى عهد المعز مبلغا كبيرا ، وكان يأمر سنويا بصنع كسوة الكعبة بحيث لا ينافسه فى اتقانها منافس من بغداد ، بل تفوقت على غيرها من المراكز الاسلامية وكانت الكسوة مربعة الشكل ، ومصنوعة من ديباج أحمر اللون طول كل ضلع منها ٢٨ مترا ويزين جوانبها اثنا عشر هلالا من الذهب ، وفى داخل كل منها خمسون درة ، ونقشت حافاتها بالآيات القرآنية بحروف من الزمرد الأخضر يحوطها الياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ، وكانت هذه الكسوة تعطر بمسحوق المسك .

وفى وصف كنوز الفاطميين فى عهد المستنصر بالله (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ / ١٠٣٥ — ١٠٩٤ م) ان النفائس كانت ترسل اليه من بغداد ، بعد أن أقيمت الخطبة باسمه على منابر مساجدها ، مشتملة على ٣٠ ألف

قطعة كبيرة من البلور ، ، و ٧٥ ألف ثوب من الحرير الخسرواني [1] و ٩٠ ألف سيف محلى بالذهب ، وكمية كبيرة من الصحاف والأواني الذهبية ، وأصص الزهور المنقوش عليها الرسوم الجميلة باسم الخليفة العباسى « هارون الرشيد » ، والمحابر المصنوعة من العاج والأبنوس والذهب والفضة المرصعة بالجواهر ، والمنسوجات البديعة المطرزة بالذهب ، والأوانى الخزفية ، وحصيرة نسيجها من أسلاك الذهب الخالص زنتها ١٨ رطلا .ويقال ان بوران ابنة الوزير الحسن ابن سهل جلست عليها يوم زفافها الى الخليفة العباسى المأمون ، وعدد كبير من المرايا المصنوعة من الصلب والمحلاة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، و ٦ آلاف اناء للنرجس ، و ٣٠ ألف تمثال من العنبر والكافور بعضها محفوظ فى شباك من الذهب المرصع بالجواهر وزنة الواحد من ثلاثة آلاف مثقال الى ستة عشر ألف مثقال ، ونخلة مثمرة مصنوعة من الجواهر والذهب ، والطواويس والطيور الذهبية المرصعة كذلك بالجواهر

(١) نسبة الى عصر « خسروشاه » من ملوك الفرس .

النفيسة ، وأوانى العطور ، والأسلحة ، وعمـامة زنة ما فيها من الحلى ١٧ رطلا ، وما لا يحصى من أكواب الشراب ، والصحاف ، والأباريق والقـدور المختلفة الأحجام من الذهب والفضة .

وفى عهـد العـزيز بن المعـز لدين الله كثرت المنشـآت والقصـور ، منها قصر الذهب ، وقصر عين شمس ، وقصر البحـر الذى لم يكن له نظـير فى الشرق ولا فى الغرب كما يقول الرواة الذين شاهدوه فى زمانه .

الطراز الأيوبى

العمارة الدينية والمدنية

عندما تسلم « صلاح الدين الأيوبى » مقاليد الحكم وأسس الدولة الأيوبية فى مصر (٥٦٧ — ٦٤٨ هـ / ١١٧١ — ١٢٥٠ م) أولى اهتمامه أولا بانشاء المدارس لنشر المذهب السنى ومناهضة المذهب الشيعى ، ثم تعجل انشاء الاستحكامات والأسوار والحصون والقلاع .

وأمر ببناء سور فى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) يحيط بالقاهرة والقطائع والعسكر والفسطاط ، وتشييد قلعة الجبل[1] الذى أشرف على بنائها الأمير بهاء الدين قراقوش .

---

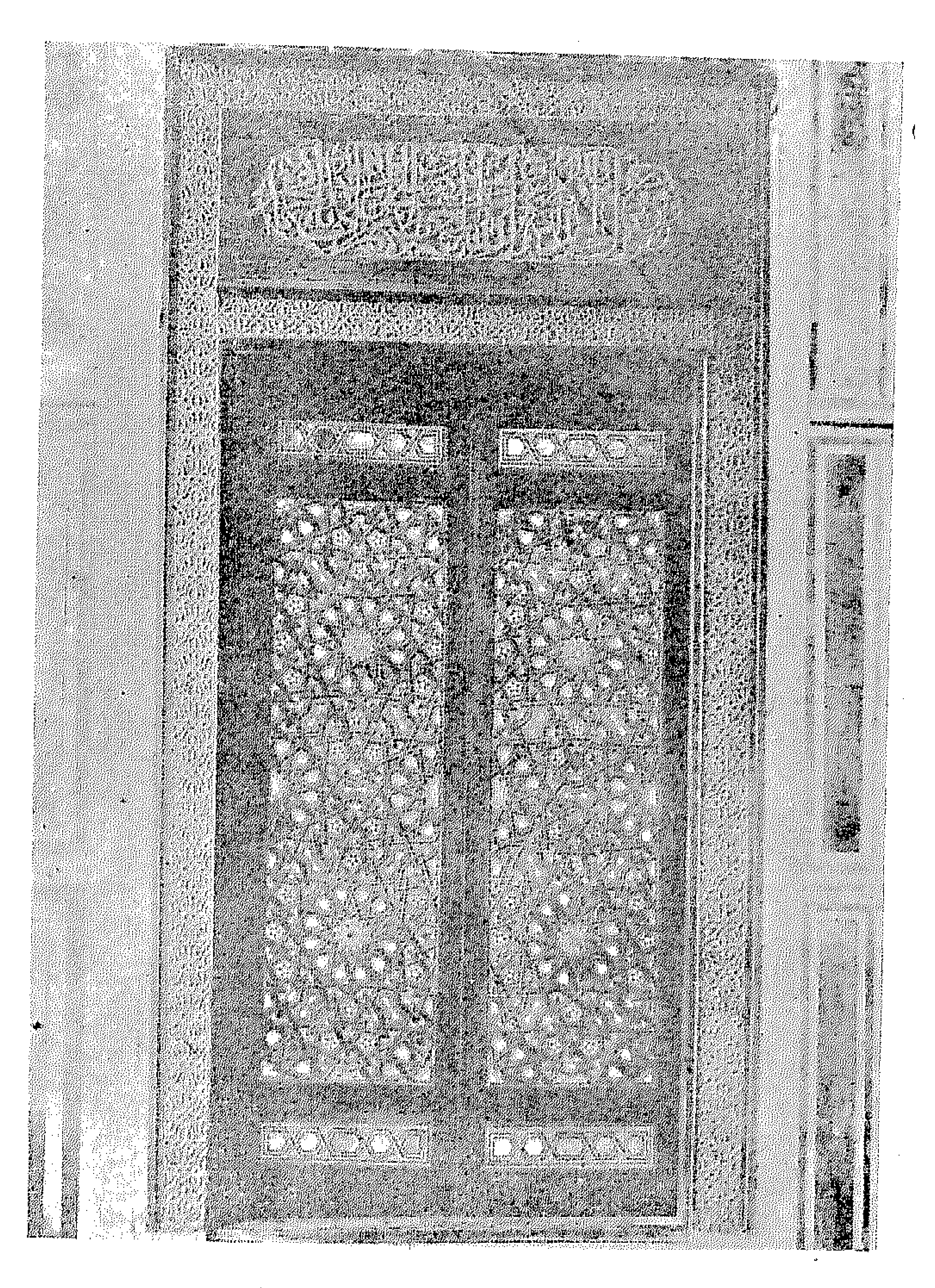
(١) اضيفت الى القلعة اضافات كثيرة غيرت معالمها الى أن تم بناؤها فى عهد الملك الكامل سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) بما شيده فيها من قصور وأبراج وجعلها مقاما له ، وحذا حذوه من جاء بعده من أمراء .

وتقدمت صناعة الحجر والرخام والزجاج الملون فى الشبابيك الجصية ، وتقدمت كذلك صناعة الحفر فى الأخشاب والنحاس ، كما عادت للمرة الثانية الفسيفساء الملونة والمذهبة فى المحاريب ، وشاع الخط النسخى بجانب الخط الكوفى ، والحق السبيل بالمدرسة وكذلك أحواض شرب الدواب .

ومن العمائر الأيوبية قبة جامع الامام الشافعى وأنشأها الملك الكامل محمد سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) وتمتاز بنقوشها وزخارفها التى تجددت فى عصور كثير من الأمراء من بعده بعد أن ظلت دولة الأيوبيين زهاء ثمانين سنة ازدهرت فيها العمارة والفنون الاسلامية التى أبيدت ولم يبق منها الا القليل .

الطراز المملوكى
العمارة الدينية والمدنية

لم تشهد مصر نهضة شاملة فى البناء مثلما كان فى عصر دولتى المماليك فيما بين عامى ٦٤٨ و ٩٢٣ هجرية (١٢٥٠ — ١٥١٧ م) ، فأنشئت الجوامع والمدارس والأضرحة والحمامات والوكالات والأسبلة ، وتتميز كلها بالاناقة والمهارة والاتقان الصناعى وكثرة الزخارف الرخامية والجصية على الجدران ، وأشغال الفسيفساء فى القباب والمآذن والواجهات والايوانات وحنية القبلة . ومن هذه الجوامع نذكر جامع السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ، وتم بناؤه فيما بين عامى ٦٦٥و٦٦٧ هجرية (١٢٦٦—١٢٦٩م) ، وجامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة وشيد سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٤ م)

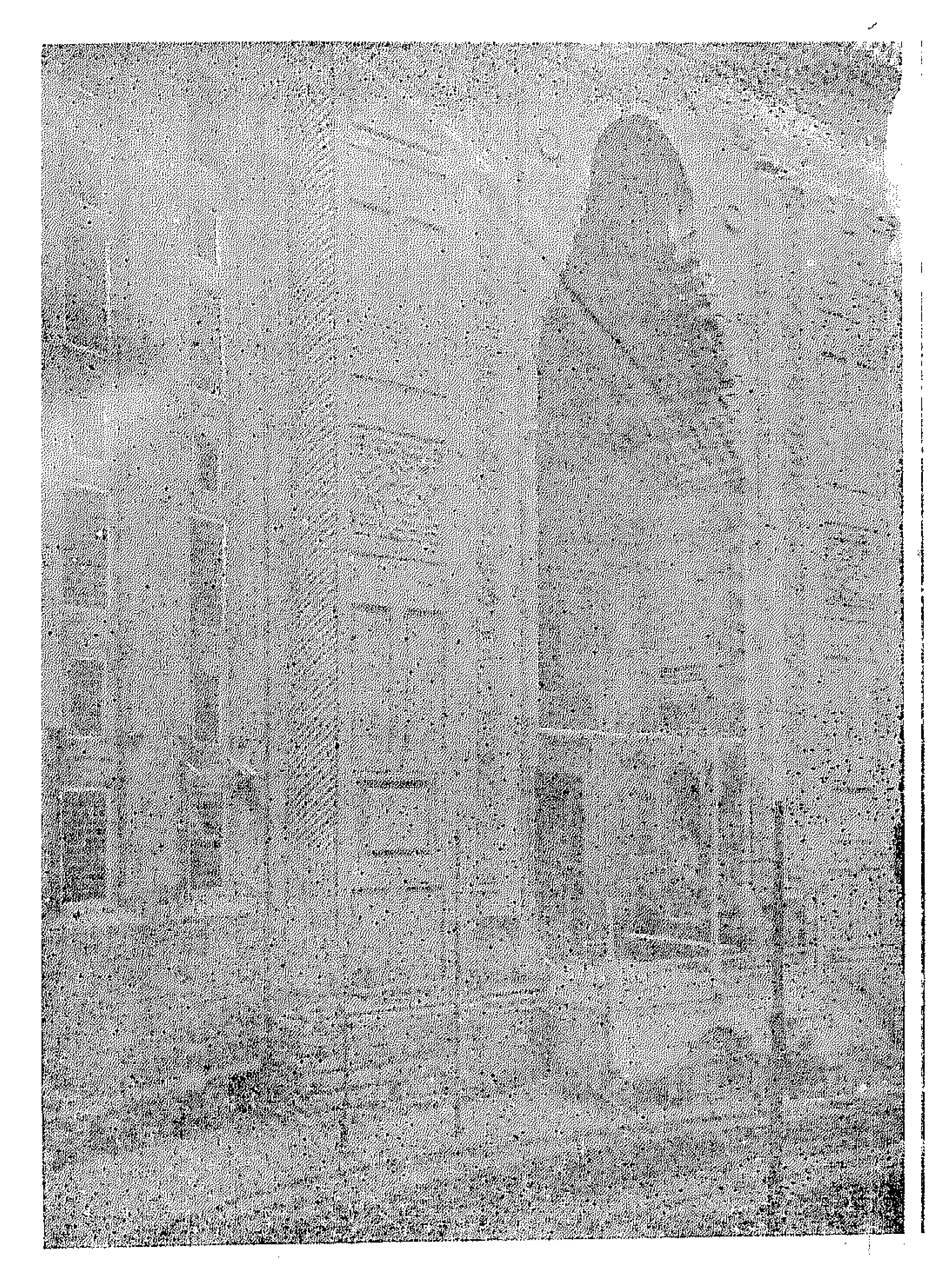


شكل (٥) باب من الخشب المطعم بالعاج بجامع المؤيد

وجامع المؤيد وتم تشييده فيما بين عامى ٨١٨ و ٨٢٣ هجرية (١٤٠٥—١٤١٠ م) وله أربعة ايونات تحيط بالصحن ولم يتبق منها الا ايوان القبلة (شكل رقم ٥) .

وأجمل العمائر الاسلامية فى الجمهورية العربية المتحدة هو الجامع الذى أنشأه السلطان المملوكى الناصر حسن بن الناصر محمد وسمى بجامع السلطان حسن . (شكل رقم ٦) بميدان القلعة وبدأ تشييده فى سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦ م) ولم يكمل الا بعد وفاة منشئه بسنين (سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م) ، وتبلغ مساحته ٧٩٠٦ أمتار مربعة وارتفاعه ٣٨ مترا وسمك جدرانه ثمانية أمتار .

وأول ما يلفت الأنظار اليه ضخامة البناء ، وعلو الجدران ، وكثرة الزخارف التى تزين الأفريز الأعلى وتكاد تبدو كخلايا النحل ، والمقرنصات التى تحلى هامات الأبواب العالية . وللجامع مئذنتان فى الجانب القبلى الشرقى يبلغ ارتفاع إحداهما ٨٢ مترا .



شكل (٦) مدخل جامع السلطان حسن (١٣٥٦ ـ ٦٢ م)

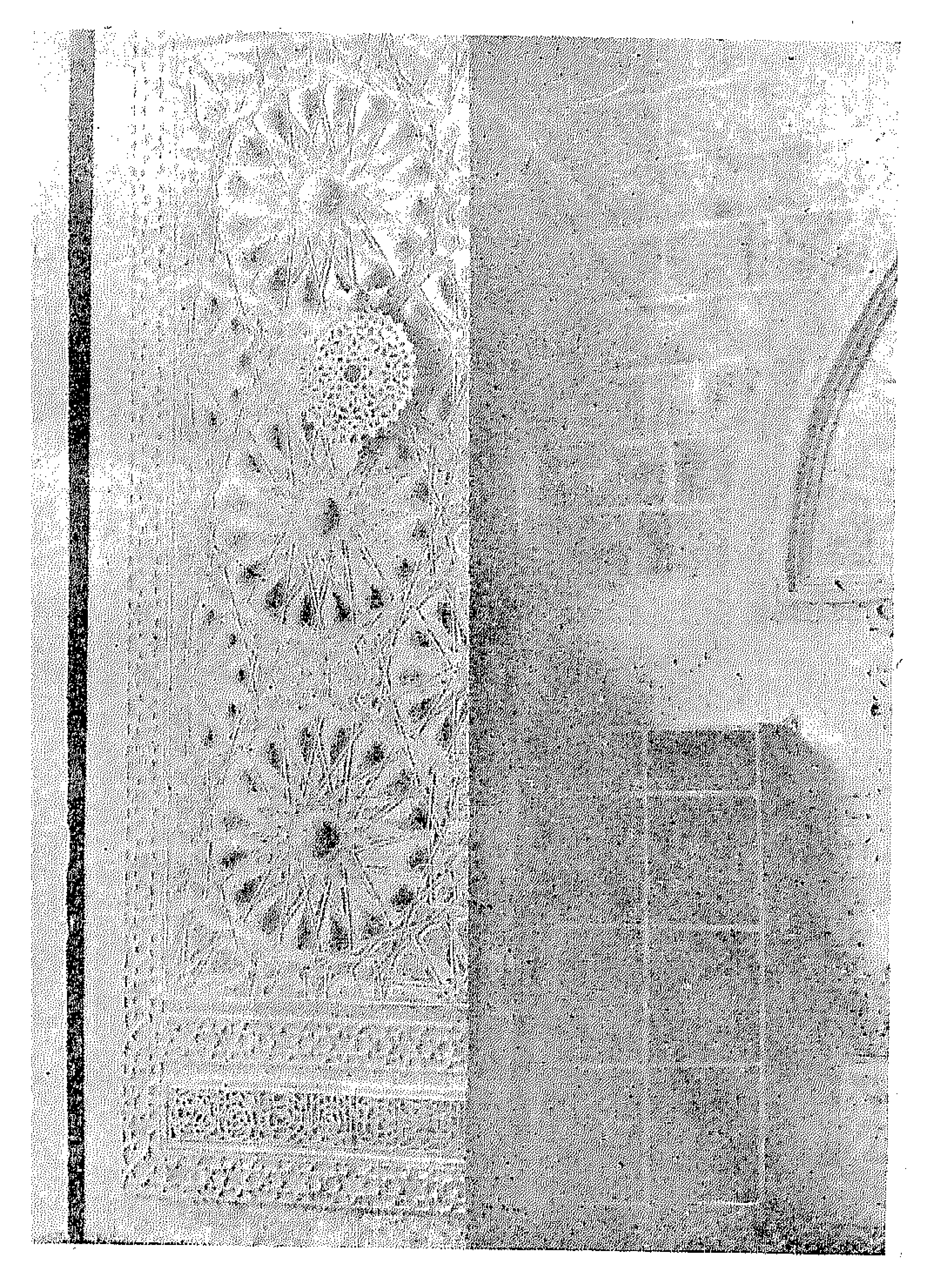
وتزين جدرانه الداخلية قطع الرخام الملون، والأشرطة الحجرية والخشبية ، عليها كتابات محفورة ، أما الكسوة المعدنية فزخارفها مصنوعة من الذهب والفضة بمهارة واتقان نادر المثال (شكل رقم ٧) .

وأبدع المدافن والأضرحة ، مدافن السلاطين برقوق، وقايتباى ، وبارسباى .

أما الأبنية المدنية المملوكية فلم يتبق منها الا أجزاء قليلة ، منها قصر الأمير وزينته سقف القاعة الذهبية وفى وسطها الفسقية الرخامية والأخشاب المطعمة والمخروطة والمحفورة . ومدخل حمام بشتاك بسوق السلاح .

وفى وصف عبد اللطيف البغدادى ، الذى زار مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى ، ما يبعث فى الذهن صورة حية لما كانت عليه الحمامات من أبهة وجمال لم يعرف العالم لها مثيلا من قبل .

ومن بقايا قصور الأمير طاز بشارع السيوفية ،



شكل (٧) باب من النحاس المطعم بالفضة من جامع السلطان حسن من القرن الرابع عشر

والأمير قوصون خلف مدرسة السلطان حسن ، ووكالة قايتباى ، ومقعد ماماى المعروف الآن باسم بيت القاضى ، ما يدل على مبلغ ما وصل اليه فن المعمار فى هذا العصر من جمال الزخرف واستغلال طبيعة الأخشاب والمعادن والأحجار المنوعة باسراف يدل على البذخ والأبهة التى كانت بشيرا بظهور الفن التركى فى مصر .

الكتاب والبناء في إيران

يستدعي الانتباه عند ذكر الفنون الايرانية شيئان ، أرى فيهما من الارتباط الوثيق ما يزيد فى الاعتقاد بأهميتهما .

ولقد سبق أن أشرت الى أن كل طراز ، وكل عمل فنى ، انما يخضع لعاملين أساسيين : أولهما تحتمه طبيعة المكان والبيئة . وثانيهما يصدر عن الفنان نفسه . وهذان العاملان هما الرمزية والعضوية .

ولعل من المناسب أن نجمل أساليب فن البناء العربى فى ايران بايجاز ، فنقول انه كان فى ايران أربعة طرز : الطراز العباسى ، والطراز السلجوقى ، والطراز الايرانى المغولى (التترى) والطراز الصفوى .

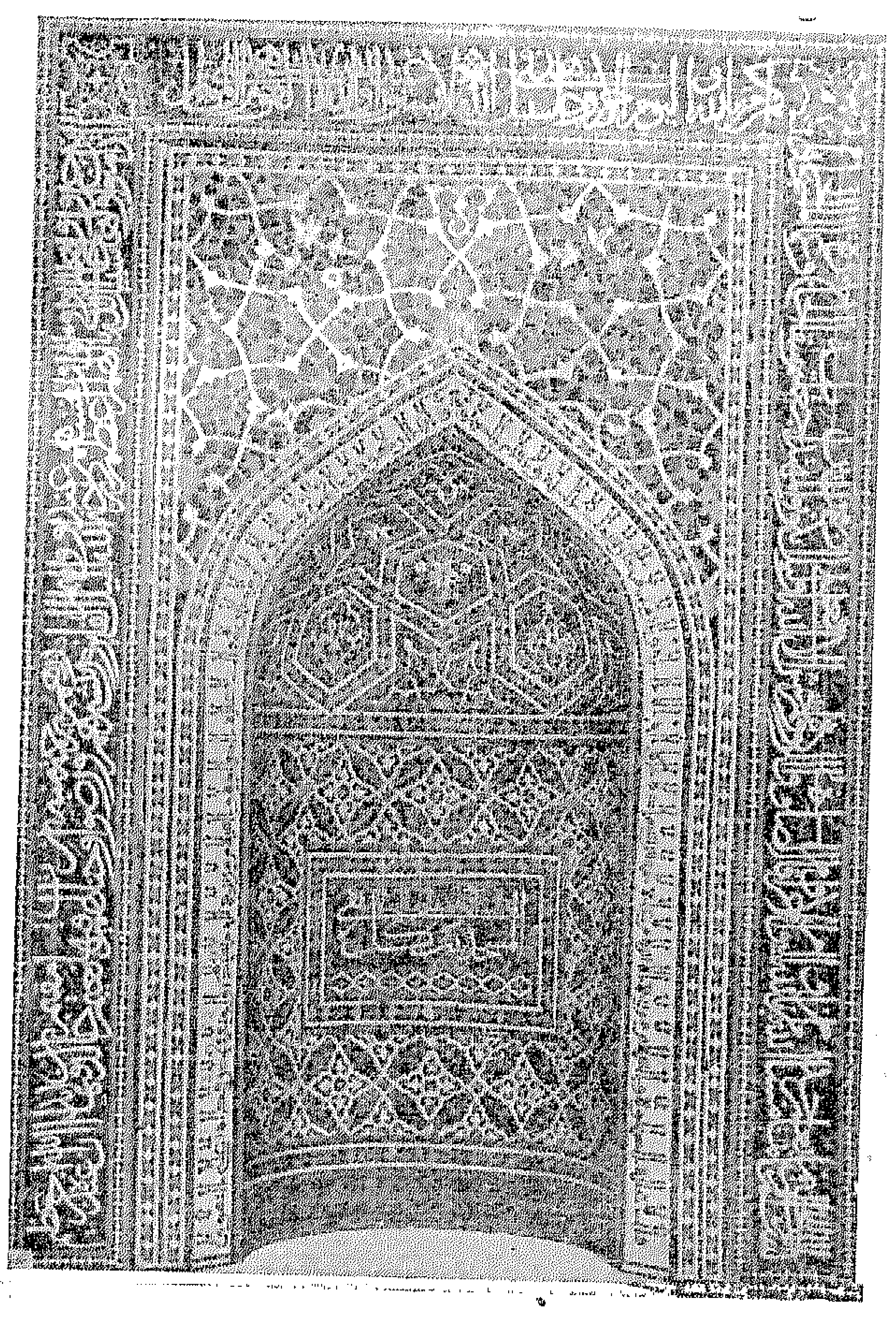
وطبيعة بلاد فارس حتمت على الفنانين أن يبنــوا عمائرهم من الحجارة الصغيرة ، وأن يستعملوا الخشب

فى السقوف القائمة على الأعمدة ، وأدى انعدام وجــود الكتل الحجرية الكبيرة ، أو تعذر نقلها ، الى الميل فى تصميم المبانى الايرانية الى البساطة ، والانتفاع بالزخارف الملونة فى تغطية الجدران الداخلية باسراف يثير الاعجاب.

وكذلك نجد أن معــرفة العرب بصـــناعة الورق ، وانتشار هذه الصناعة فى ايران كان لها تأثير ملموس على تقدم فنون الكتاب . كما أن تعظيم القرآن كان باعثــا لكثير من الفنانين على العناية باخراجه .

وأصبح الكتاب عملا جماعيا — كالبناء — يتعاون فيه الخط والرسم والتــذهيب والورق الفــاخر والمواد الثمينة . وكان أرفع الفنانين قدرا هم الذين يزينــون الكتاب ويخطوه .

فكما كان المعمارى يترك للمزخرفين الفــراغات فى البناء لأعمال الفسيفساء والقاشــانى (شكل رقم ٨) وأشغال « الخردة » والزخــارف المحفورة والمرســومة والحليات الملونة ، كذلك كان الخطاط يترك فى الكتاب الفراغات والحواشى التى يزينها المصور بالرسوم .



شكل (٨) محراب من الفسيفساء من مسجد ايرانى من القرن الرابع عشر

وفى كتب تاريخ الفنون الاسلامية مجال واسع للدراسات التفصيلية لمختلف أنواع الفنون والصناعات الزخرفية الايرانية ، مما يضيق بذكره هذا الكتاب . وأهم ما أولى الايرانيون فى العصر الاسلامى عنايتهم به هو الخط الجميل . وهو أمر طبيعى دعت اليه الحاجة الى نسخ القرآن وكتب السيرة النبوية والأدعية وكتب الأدب والشعر . وتأتى الرسوم الملونة الدقيقة الصنع والتذهيب فى المرتبة الثانية بعد الخط الذى تطور من الكوفى الى الفارسى الزخرفى الشكل لتزويد المخطوطات بها .

وهكذا نرى أن الكتاب يأتى بعد البناء من حيث أهميته الفنية عند الايرانيين ، وفى هذا الميدان وجد الفنان الايرانى مجالا للبلوغ بالفن الزخرفى غايته فى الاتزان والدقة وتوافق وانسجام الألوان .

وعلى الرغم مما كان شائعا من كراهية التصوير فى الاسلام فقد ازدهر هذا الفن على أيدى المصورين الايرانيين والهنود والأتراك .

ولقد رسم المصورون المسلمون صورا للأنبياء فى المخطوطات ، متأثرين بالصور المسيحية ، ومن هذه

المخطوطات كتاب البيرونى المحفوظ فى جامعة ادنبره ، وبه صورة للنبى عليه الصلاة والسلام ، ويرجع تاريخه الى سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م) ، وعلى الرأس هالة من نور ، ولقد استعملت هذه الهالة لتدل على القدسية عند المسيحيين ، أو خطورة الشخصية وأهميتها فى الرسوم الاسلامية . وهناك مخطوطات أخرى تسبق هذا التاريخ ، وأقدمها يرجع الى القرن الثانى الهجرى (التاسع الميلادى) وجاء فيها صور نوح فى السفينة ، وموسى وعصاه ، وعيسى وأمه على حمار يقوده يوسف النجار أو من حوله الحواريون ، ثم محمد عليه الصلاة والسلام راكبا جملا ، ويرجح أن هذا المخطوط من صناعة فنانين صينيين .

وفى عصر المغول فى ايران ، كانت العلاقة بين ايران والشرق الأقصى وثيقة الاتصال ، فى القرنين السابع والثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر للميلاد) ، اذ كانت الأسرتان اللتان كانتا تحكمان فى الصين وايران من أصل

مغولى واحد ، مما أدى بالايرانيين الى الانصراف عن أساليب المدرسة العراقية ، بعد أن عرفوا من فنون الرسم والتصوير الصينى ما أعانهم على توضيح كتب السيرة ، وكتب التاريخ والحروب ، وتصوير مظاهر الحياة عند أمراء المغول وأسراتهم وحاشية بلاطهم .

فن العمارة الاسلامية فى ايران

عندما تم النصر للعرب على بلاد فارس باستيلاء عمر بن الخطاب سنة ١٤ هـ (٦٤٥ م) على مدينة أصبهان ، ارتبط تاريخ بلاد الفرس ببغداد لمدة ثلاثة قرون ، ثم تداولت حكم البلاد الفارسية دول مؤقتة : منها السامانيون ، ثم الدولة الصفارية ، ثم الغزنويون ، الذين هزمهم الأتراك السلاجقة الى أن قضى عليهم المغول ، وخلفتها دولة التركمان الى أن تم توحيد الأقاليم الايرانية أثناء حكم الصفويين بعد طرد التركمان.

وتأثرت العمارة الاسلامية فى ايران بما ورثه الايرانيون من أساليب معمارية قديمة تختلف باختلاف طبيعة الأقاليم وأحوالها الجوية . وأهم الأساليب الشائقة فى العمارة الايرانية حتى عصر الدولة الساسانية : بهو الأعمدة ، وعقد المدخل الكبير ، واستخدام الجص فى

الزخارف المنوعة والدقيقة الصنع فى عقود ومحاريب المساجد فى يزد واصفهان ، وتتألف هذه الزخارف من رسوم نباتية وهندسية من الطراز العباسى ، وأشكال آدمية وحيوانية من العصر السلجوقى .

والبساطة ، هى طابع البناء الاسلامى فى ايران . وتعوضها وفرة الزخارف الملونة فيما شيدوه من مساجد ، ومدارس وأضرحة ، وقصور تزينها نافورات المياه ، وتحفها الشجيرات والزهور .

واستعمال القباب فى الأضرحة أدخله الايرانيون فى البناء الاسلامى بعد أن أجادوا تشييدها على معابد النار قبل الاسلام على قاعدة مربعة تزين زواياها الأربع المقرنصات والدلايات ، لدعم الأركان ، وتتكاثر تدريجا بعضها فوق بعض على الجدران حتى تصل الى مستوى استدارة محيط قاعدة القبة الشاهقة الارتفاع ، ومنها نوعان : نوع مستدير كل الاستدارة . ونوع بصلى الشكل .

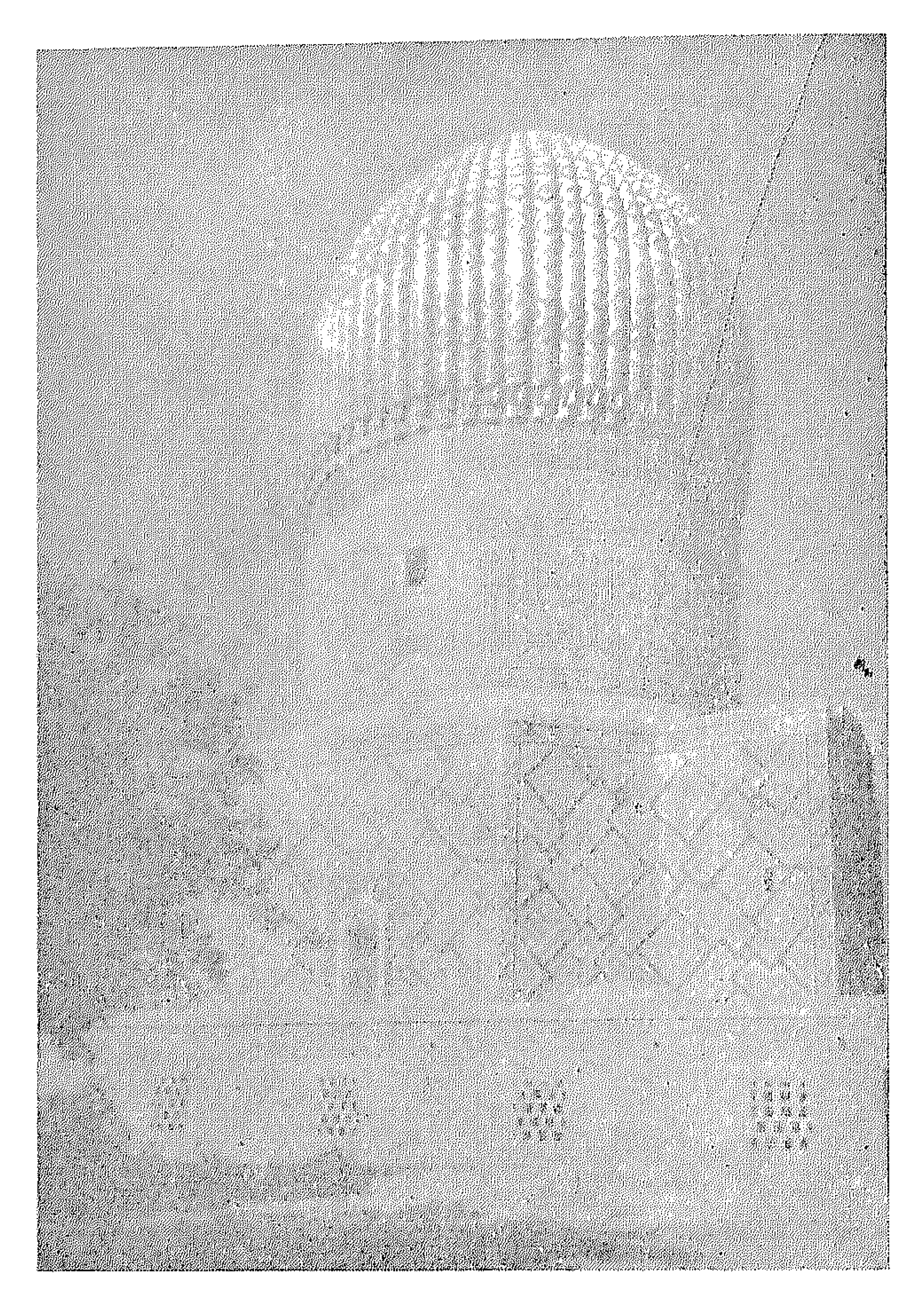
وكانت المآذن تبنى بارتفاع شاهق على شكل اسطوانى ، وذات كسوة خارجية من القاشانى . وهى

دليل على تأثرهم بأبدان الأعمدة التى كانت تقام بكثرة فى داخل المبانى الفارسية لحمل السقوف والبروج التى كانت تبنى لعبادة النار فى عصور ما قبل الاسلام .

واستعمال القاشانى وترابيعه المصنوعة من الخزف ذى البريق المعدنى ، من أخص خصائص العمارة الايرانية، وتتجلى معالم هذه الصناعة الفنية فى الأبنية الاسلامية منذ بداية القرن الرابع عشر للهجرة ، وكانت مقصورة على المآذن والمساجد والعمائر الغظيمة ، ثم استخدمت فى القبور والأضرحة (شكل رقم ٩) .

ولقد أدى تداول الحكم « الى جانب غزو المغول » الى هدم المبانى الساسانية والاسلامية ، ولم يعد فى أصبهان شىء من مبانى العرب ، وكل ما فيها يرجع الى عهد الشاه عباس مؤسس الأسرة الصفوية ، بعد أن جعلها قاعدة ملكه وخلفائه من حكام الأسرة الصفوية من سنة ٣٨٧ الى سنة ٩٩٦ هجرية (٩٩٦—١٥٨٧ م) .

وكل ما يمكننا معرفته أن قصور أكاسرة الفرس — قبل الاسلام — كانت على جانب عظيم من الزينة والزخرف ، ولا شك فى أن العمارة الاسلامية تأثرت بها



شكل (٩) ضريح تيمور بسمرقند

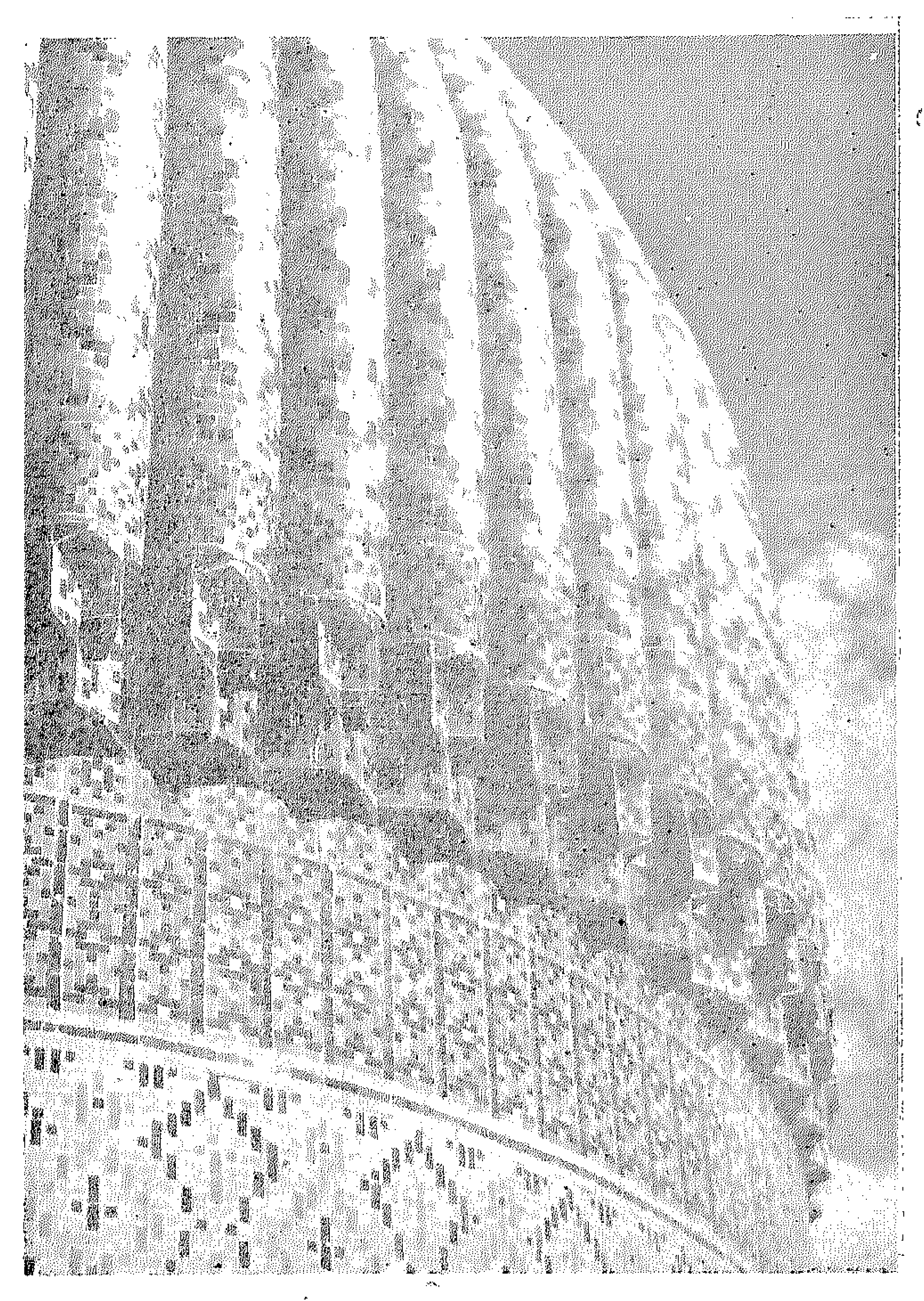
كما تأثرت أيضا ببناء القباب . ولكننا نستطيع القول : ان البناء الايرانى تأثر هو الآخر بأساليب العرب فى الأربعة الطرز التى أشرنا اليها فى أول الكلام ، سواء فى بناء شكل القبة ، أو الأقبية والعقود والمقرنصات ، والنقوش والزخارف الخطية أو النباتية أو الهندسية ، والفنون الفرعية .

ولقد ذكرنا الطراز العباسى. ويليه الطراز السلجوقى، والسلاجقة من قبائل التركمان قدموا الى الهضبة الايرانية من آسيا الصغرى ، وهم من أتباع السنّة ، وطرز مبانيهم تتميز بالضخامة ، والاتساع ، وكثرة استخدام الزخارف ورسوم الكائنات الحية ، وأكثروا من تشييد الأضرحة على هيئة أبراج اسطوانية تنتهى بقباب . وفى عهد الوزير نظام الملك — راعى الشاعر الفيلسوف عمر الخيام — شاع بناء المدارس لتعليم المذهب الشافعى .

والطراز التترى — المغولى يرجع الى عصر «هولاكو» أحد أبناء چنكيزخان مؤسس الأسرة الايلخانية التى حكمت ايران حتى سنة ٧٣٦ من الهجرة (١٣٣٥ م) ؛

وتتميز فنون هذه الأسرة بأساليب يغلب عليها الطابع الصينى الأنيق ، مع ضخامة القباب ، وعظمة وفخامة الأبواب العالية التى تشاهد فى مسجد «قرامين» وتم بناؤه فى سنة ٧٢٢ هـ (١٣٢٢ م) وجامع جوهر شاد بمدينة « مشهد » ويرجع عهده الى سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) .

أما الطراز الصفوى فقد عنى على الخصوص بالقصور وتشييد المدن والخانات والأسواق ، واستخدم التراابيع القاشانية لتغطية الجدران مع استخدام الفسيفساء ذات الألوان المتنوعة فى رسوم الزهور والنباتات وفى الأشكال الزخرفية . ومن أبدع المساجد الصفوية مسجد الشاه فى « أصفهان » ، وجامع الشيخ صفى الدين فى « أردبيل ». أما المدارس فأجملها مدرسة تيليا كارى فى « سمرقند » (شكل رقم ١١) وهى من أعمال القرن الحادى عشر من الهجرة (١٧ م) ، كما أقيمت الأضرحة لأئمة الشيعة فى العراق — فى كربلاء وسامرا والنجف — وقبابها بصلية الشكل .



شكل (١٠) جانب من قبة مسجد تيمور بسمرقند
ومكسوة بالفسيفساء

فن التصوير فى بغداد وايران

صحيح أن التصوير فى الاسلام كان متشابها ، الا أن مدارســه وطرزه كان لهــا مميزات يمكن التعرف عليها بالمقارنة ، فمخطوطات الكتب القــديمة ، العربية — الايرانية ، بها رسوم كانت نشأتها على أيدى مصورين بيزنطيين أو من تأثر بهم من المسلمين . وبالجملة تعتبر الصور والرسوم العراقية لها من سماتها السامية ما يجعلها أكثر عربية من المدرســة الايرانية التى كانت أشهر مراكزها تبريز وبغداد فى القرنين السابع والثامن للهجرة (١٣و١٤ للميــلاد) فى عصر أمــراء المغــول ، وسمرقند وبخارى فى عصر تيمورلنك وخلفائه .

وكان فن المدرسة الايرانية على وجه العموم متأثرا بأساليب الشرق الأقصى ، حتى بلغ ذروته فى عصر الدولة

المغولية — الترترية التى اهتمت برعاية الفنون ، رغم ما عرف عنها من تخريب للمدن وسفك للدماء .

وفى مدينة نيسابور بشرق ايران عثر على نماذج من رسوم حائطية ترجع الى العصر العباسى الأول ، وهى من نوعين : الأول ، ذو لون واحد يحدده خط داكن Monochrome . والثانى ، متعدد الألوان والدرجات Chromatic . « وتعتبر هذه الزخارف امتدادا للفن الفارسى ، وامتزاجا بالفن الهيلينسكى (الفنون الاغريقية فى الشرق) ، ويغلب عليها الأسود والأبيض والأحمر والأزرق فى رسوم الرجال والنساء ، والحشوات الزخرفية للنباتات والنخيل ، وثمار الرمان وعناقيد العنب ، والأشكال الهندسية المتشابكة والمتكررة ، المرسومة أو المحفورة فى الجص . كما شاع فى القرنين الثانى والرابع للهجرة (الثامن والعاشر للميلاد) التكوين الزخرفى الملون فى رسوم على هيئة اصص الزهور .

وعظم شأن المصورين العراقيين بعد أن اختلط بهم

كثير من أتباع المذهب المانوى [1] فى القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) ، وظلت بغداد محتفظة بمكانتها الفنية فى العالم الاسلامى حتى غزو المغول — التتار فى مطلع النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى .

واشتهر مصورو العراق بتزيين المخطوطات ، ومن أقدمها كتاب الطب البيطرى ، ويقال انه كتب فى بغداد فى سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ومحفوظ الآن بدار الكتب بالقـاهرة .

ومقامات الحريرى هى من أشهر المخطوطات العراقية المزينة بالرسوم ، وأقدمها نسخة منها مخطوطة فى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢٣ م) ، ومخطوطة أخرى منسوبة الى « يحيى بن محمود بن يحيى بن الحسن الواسطى » أتمها سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٧ م) واتبع فيها أسلوبا واقعيا فى رسم الأشخاص ، ومناظر الحياة الاجتماعية المألوفة ، وتكرار رسم الأشخاص فى أوضاع متشابهة مع احاطتها بثروة

---

(١) المانويون خليط من عقائد الزرادشتية والمسيحية البيزنطية ودعى الى المذهب المانوى مؤسسه « مانى » فى ايران .

هائلة من الزخارف الملونة[1] وهو تأثير شرقى بحت يرجع الى عصور الآشوريين والفرس قبل الميلاد المسيحى — واستطاع الواسطى أن يبتكر أسلوبه ويمهره بطابع اسلامى مميز .

وعندما ترجم عبد الله بن المقفع الى العربية الأساطير الهندية التى كتبها الفليسوف الهندى « بيدبا » المعروفة باسم « كليلة ودمنة » عمد المصور الى تزيين المخطوطة ، التى ترجع الى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠م) ، بصور الحيوانات المختلفة والأشجار والمناظر الطبيعية بأسلوب زخرفى يغلب عليه الطابع الساسانى ويتميز بقوة الخيال .

التصوير فى العصر السلجونى

وكل ما أمكن معرفته فى هذا العصر كان مصورا على الحوائط أو على الخزف المصنوع فى مدينتى « قاشان »

---

(١) يعنى بعض الكتاب بدراسة الفنون الاسلامية وينسبونها الى الفن البيزنطى ولابد لنا من أن نعلم أن الفن البيزنطى استمد من فنون ميزوپوتاميا ، وهو اقليم بلاد النهرين حيث قامت حضارة الآشوريين والبابليين وكذلك من الفارسيين الكثير من العناصر التى حددت معالم اسلوبه .

و « الرى » . وأسلوب الرسـم السلجوقى يختلف عن الأسلوب المغولى — الذى سيأتى ذكره — ولكنه يميل الى الأخذ عن رسوم مدرسة بغداد ، من حيث التنسيق الزخرفى ، مع الميـل الى اظهار التفاصـيل فى رسـوم الأشخاص بطريقة اصطلاحية تظهر فيها السحنة السامية واللحى السوداء .

وكذلك استخدمت صناعة الفسيفساء فى التكوينات الزخرفية التى اتقن صناعتها السلاجقة من القرن السادس الهجرى (١٢ م) الى أن بلغت هذه الصناعة الفنية أرقى مراتبها وأدق جزئياتها فيما بين القرنين الثامن والعاشر للهجرة (١٤—١٦ م) وأشهر مراكز هذه الصناعة كانت فى اصفهان وسمرقند وتبريز وقاشان وهراة .

التصوير فى العصر المغولى :

وفيما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر للميلاد ، كان فن التصوير يتأرجح بين الأسلوبين : الايرانى بألوانه الزاهية ، والصينى بألوانه القاتمة السواد ، كما يبدو فى رسوم كتاب بختيشوع عن « فوائد الحيوان » ويبلغ

عددها تسعين رسما ، وجميعها متأثرة بأسلوب مدرسة أسرة « سونج » وأسرة « يوان » فى رسم الوجوه ، الى أن سقطت أسرة « يوان » فى نفس السنة التى سقطت فيها دولة المغول فى ايران سنة ٧٣٦ هجرية (١٣٣٥ م) .

التصوير فى العصر التيمورى :

وفى العصر التيمورى اشتهرت مدينة « سمرقند » كمركز لفن التصوير فى القرنين الثامن والتاسع للهجرة (١٤ — ١٥ م) ، واهتم المصورون بالنسب والألوان ، مما أدى الى تأكيد روح الفن الايرانى وذاتيته فى عصر تيمورلنك ، وابنه « شاه رخ » ، وحفيده « بايسنقر ميرزا ابن شاه رخ » . وكان اهتمامهم بالفنون كبيرا الى حد أن الأخير أسس معهدا لفنون المخطوطات كان ملحقا به أربعون مصورا ، من بينهم الخطاط والمزخرف « جعفر البايسنقرى » ، والمصور « أمير شاهى » ، والمصور « غياث الدين » الذى سافر مبعوثا الى الصين ليصور كل ما يراه فى رحلته . ولقد اشتركوا جميعا فى تصوير

الشاهنامة [1] التى نظمها الشاعر الفردوسى فى أواخر القرن الرابع للهجرة (١٠١٠ م) الى جانب تصوير كتب الشعر العاطفى للشاعرين نظامى وسعدى .

وعبد الكريم وأخوه عبد الرحيم الخوارزمى هما ابنا الخطاط الشهير « عبد الرحمن الخوارزمى » ، ولقد استطاعا أن يبشرا بأسلوب المدرسة الصفوية التى ازدهرت خلال القرن التاسع الهجرى (١٦ م) بما قدماه من رسوم فى ديوان أشعار التصوف والغناء للشاعر « جامى » ، ومن أسباب نجاحهما أنهما عاصرا الشاعر وتأثرا بمصادر الهامه .

المصور بهزاد والمدرسة الصفوية :

يرجع الفضل الى الدولة الصفوية فى توحيد الأساليب الفنية بعد أن حققت الوحدة السياسية فى الأقاليم الايرانية.

ويعتبر المصور «كمال الدين بهزاد» أشهر المصورين الايرانيين المعاصرين للأسرتين التيمورية والصفوية . وهو

---

(١) الشاهنامة ، معناها كتاب الملوك .

من مواليد هراة حوالى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) ، ولقد تغنى ببدائع فنه المؤرخون فى عصره ، وأطروا مواهبه ونبوغه ، وقدرته السحرية على بعث الحياة فى أدق معالم الكائنات بذوق رفيع ، وتركيب بديع ، وانسجام هادىء فى استعمال الألوان الممتزجة بعضها ببعض .

ولقد عاش « بهزاد » فى مدينة هراة ، بعد انهزام الأسرة التيمورية سنة ٩١٦ هـ (١٥١٠ م) على يد « الشاه اسماعيل » الصفوى ، فانتقل الى تبريز ، وأسس هناك مدرسة فنية لتدريب النشء على أسرار فنه . وله فى دار الكتب بالقاهرة مخطوطة من كتاب البستان ، الذى يرجع الى سنة ٨٩٣ هـ (١٤٨٨ م) ، وكان يعمد الى تصوير نفسه وتلميذه النابغة قاسم على فى كثير من رسومه .

واستمرت تعاليم الفنان « بهزاد » فى الأسرة الصفوية وكانت تبريز مركزا لها بعد خراسان ، مع استمرار العاصمة هراة كمركز للفنون من المرتبة الثانية ، واليها يرجع الفضل فى استمرار تعاليم فن المصور « بهزاد » على أيدى أتباعه .

ومن أعلام المصورين فى العصر الصفوى ، « أغا ميرك » (تلميذ بهزاد) ، و « سلطان محمد » رئيس معهد الفنون فى تبريز ، وكان لرسومه تأثير كبير على صناعة القاشانى والأبسطة والسجاجيد ، كما كان لابنه « محمدى » شهرة واسعة فى تصوير المناظر الطبيعية ، و « شيخ زادة » (تلميذ بهزاد) والخطاط الشاعر « سلطان محمد نور » تلميذ أبيه المشهور « سلطان على المشهدى » .

ومن المميزات التى استحدثت فى العصر الصفوى ظهور قلنسوة مدببة سوداء اللون فى صور الأشخاص .

وفى أواخر القرن العاشر الهجرى (١٦ م) شاع فى عصر « الشاه عباس » تصوير المناظر الطبيعية على اللوحات المنفصلة ، التى يمكن نقلها من مكان الى آخر ، وكذلك شاع تصوير الأمراء والأشراف فى أبهى ثيابهم ، مع العناية باظهار ريش الطيور أو الأزهار فى عمائمهم الكبيرة .

وفى عصر الشاه عباس اشتهرت مدينة « أصفهان » بمعهدها الذى أنشأه الشاه لفنون التصوير والرسم . وأشهر خطاطى ورسامى العصر هو « رضا عباسى » ، ومن

أعماله صورة شاب يحمل كأسا ، وصورة عجوز يتوكأ على عصاه ، وفيهما يبدو جليا أسلوبه الواقعى . وفى مطلع القرن الحادى عشر للهجرة (١٧ م) بدأت تفد على ايران صور أوروپية وهولاندية على وجـه التخصيص ، مع استمرار العمل باسلوب « رضا عباسى » .

التصوير التركى

قام فن التصوير عند الأتراك على أيدى فنانين ايرانيين وأوروبيين ممن استدعاهم السلاطين الى استانبول ، التى كانت تعرف بالقسطنطينية قبل سقوطها فى أيدى العثمانيين فى سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م) أيام السلطان محمد الفاتح .

وتوثقت العـلاقة بين الأتراك والايطـاليين فى أيام السلطان محمد الثانى ، الذى استدعى الفنان البندقى « چنتيلى بلّينى »[1] فى سنة ١٤٧٩ م ليصوره على لوحة

---

(١) چنتيلى بلينى (١٤٢٦ ــ ١٥٠٧) مصور ايطالى تلقى أصول الفن فى مدرسة والده « ياكوپو » وتعاون معه على تأسيس مدرسة التصـــوير فى البندقية فى القرن الخامس عشر .

محفوظة الآن بالمتحف الأهلى بلندن . كما كان للمصورين الايرانيين تأثير كبير فى طبع الفن التركى بالطابع الايرانى ، ومن أشهرهم فى بلاط السلطان سليمان القانونى (٩٢٧— ٩٧٤ هـ / ١٥٢٠—١٥٦٦ م) المصور « شاه قولى » ، والمصور « ولى چان التبريزى » ، ولقد بذ كل منهما الآخر فى تصوير العذارى والملائكة ذوات الأجنحة البيضاء .

التصوير الهندى المغولى

انتشرت الحضارة الاسلامية فى الهند بدخول بابر المغولى — أحد أحفاد تيمورلنك — مدينتى دهلى وأجرا، وكان عالما وفيلسوفا وراعيا للفنون ؛ ومن عشاق فن « بهزاد » . واستمر حكم بابر خمس سنوات (من سنة ٩٣٢ الى ٩٣٧ هـ / ١٥٢٦ — ١٥٣٠ م) . وخلفه همايون الذى اضطر الى الهروب الى ايران فى سنة ٩٤٦ هـ (١٥٣٩ م) ، ثم عاد الى عرشه ثانية فى سنة ٩٦٣ هـ (١٥٥٥ م) .

وفى الفترة التى قضاها همايون فى ايران فى ضيافة الشاه طهماسب تعرف على كثير من المصورين الايرانيين ،

واصطحب معه الى بلاطه فى كابل المصورين عبد الصمد الشيرازى ومير سيد على ، ويعتبران المؤسسين الحقيقيين لمدرسة التصوير المغولى فى الهند . ومن أعمالهما قصة «مغامرات الأمير حمزة» الخيالية المصورة على ١٤٠٠ قطعة كبيرة من القماش ، وأتماها فى عصر « أكبر » وكان مثل أبيه « همايون » مولعا بالفنون الجميلة فأسس لها مدرسة ألحق بها أكثر من سبعين مصورا هنديا تحت اشراف أساتذة ايرانيين . كما اهتم بتجميل قصوره برسوم جدارية كبرى .

وطابع المدرسة الهندية المغولية يتميز بالدقة واتقان الرسم وعلم المنظور عن الطبيعة ، والدراية باشتقاق الألوان وحسن توزيعها فى رسوم الحيوان والطيور والمناظر الخلوية .

وفى عصر « جهانجير (١٠١٤—١٠٣٧ هـ/١٦٠٥ — ١٦٢٧ م) ابن « أكبر » ، وضحت معالم فن التصوير الهندى المغولى — المتأثر بفنون الشرق العربى — نتيجة اهتمامه بتصوير الأحداث والحياة فى عصره على لوحات منفصلة ، وكان يصطحب معه المصورين فى رحلاته . ومن

أشهر مصورى زمانه « منصور » الذى برع فى رسم الزهور ، ومراد ومانوهار وغلام على وأبو الحسن الملقب بنادر الزمان ، وعلى أيدى هؤلاء بدأت تظهر الصورة الشخصية للسلطان چهانچير والأمراء ورجال بلاطه فى تسجيلات لمجالس الحديث بينهم .

وفى عصر السلطان «شاه چهان» فيما بين ١٠٣٧ — ١٠٦٨ للهجرة (١٦٢٨ — ١٦٥٨ م) بلغت الصورة الشخصية ذروة الابداع على لوحة تمثل السلطان على عرشه ، وعلى لوحة أخرى تمثل ابنه «دارشيكوه» . وأدى اقبال الأمراء والاشراف والاهتمام بصورهم الشخصية الى تنافس المصورين — ومن أشهرهم : « ميرهاشم » و « محمد فقير الله خان » — وازدهار فن التصوير خلال القرنين العاشر والحادى عشر للهجرة (١٦و١٧ م) أنتجت فى خلالهما بدائع ساحرة تفوق ما تعلموه من تقاليد الفنون الايرانية الزخرفية بما اكتسبه الفنان الهندى من مران فى استخدام الظل والنور فى التشكيل ، ودراسته نظريات وقواعد المنظور علاوة على درايته بالألوان وقدرته على التعبير بها فى دقة وبراعة .

الخطوط والزخارف المذهبة والملونة

أدت الفتوح الاسلامية الى انتشار لغة العرب فى البلاد التى دخلوها ، وكان للكتاب شأن كبير فى انتشار فنون الرسم والاهتمام بالخط العربى بأساليب زخرفية مبتكرة ، أخرجته من الجمود الذى كان عليه الى نوعين : الأول ، هو الخط المعروف باسم الكوفة بالعراق. والثانى ، هو الخط النسخ .

وكان الخطاطون هم أرفع الفنانين مكانة ، وكان الخط الكوفى هو أول ما استعمل من الخطوط العربية منذ القرن السابع الميلادى — وهو بداية التاريخ الاسلامى — حتى القرن العاشر الميلادى ، فى العراق وسورية ومصر . وفى خلال القرن الخامس الهجرى

(الحادى عشر للميلاد) حل محله الخط النسخ الذى شاع استعماله فى عصر الدولة الفاطمية .

وكانت الزخارف الملونة — الهندسية والنباتية — تؤدى بعناية فائقة وافراط فى تنويعها ، بجانب تجويد الخط وابداع رسم الحروف بمرونة وليونة واسترسال ، بعد أن كانت الحروف تكتب من قبل على هيئة مربعات ومضلعات تميل الى الجفاف والجمود .

ولقد أمكن استغلال الخط الكوفى فى تركيبات هندسية ، عمودية وأفقية ، ثم أضافوا اليها زخارف محورة من أشكال أوراق الشجر ، تخرج من سيقان الحروف ، أو تكون بمثابة أرضية خلف الكتابة التى تعلوها على سطح الأحجار فى أبنية المساجد . ثم نجد الخطاط — بعد أن تهيأت له القدرة على قوة التعبير وجمال التوزيع — يعمد الى الافادة من طبيعة المساحة التى تشغلها الكتابة .

وهناك نوع من الخط الكوفى المضفر ، انتشر فى بلاد المغرب وفى قصر الحمراء بالأندلس . ولقد أمكن كذلك استعمال القرميد والطوب المختلف الأحجام فى أوضاع

تتألف منها الكلمات على هيئة أشكال هندسية تسمى بالكتابة المربعة البارزة .

وهناك ضروب شتى من الخطوط العربية كالثلث ، والرقعة ، والريحانى ، والديوانى ، والفارسى ، والمغربى — ويسمى بالأندلسى أو القرطبى — ويتميز بالاستدارة الكبيرة .

وفى خلال القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) ظهر فى ايران نوع من الخط المسمى بالتعليق أو « النستعليق » ، وتظهر فيه الحروف مائلة من اليمين الى اليسار .

ولقد عرف العرب تغليف الكتب بالخشب المغطى بالجلد بطريقة الضغط أو الدق عن أقباط مصر ، ونشروه فى الأقاليم الاسلامية . وتفوقت صناعة الكتب العربية فى القرن التاسع للهجرة (١٥ م) على غيرها من الكتب ، وكان لها تأثير واضح على صناعة التجليد فى أوربا منذ العصور الوسطى .

واشترك المصورون مع صناع الجلود فى زخرفة الكتب بعناصر هندسية ونباتية مع الرسوم الجميلة

للحيوان والطيور بالألوان والذهب أو بطريقة التخريم .

والفنون الزخرفية العربية بطبيعة تكوينها وتركيبها تعتبر أمثلة بارعة من الفن التجريدى ، ولقد استعان المزخرفون بصور الحيوان والطيور الخرافية مثل التنين وطائر العنقاء ، فى أغراض زخرفية أو لغاية نفعية ، دون أن تكون مقصودة لذاتها أو الاستعانة بها كرمز .

والتكوين الهندسى والنباتى من العناصر الأساسية فى الزخرفة العربية ، ويعتبر الطراز الأموى حلقة الاتصال بين الزخارف النباتية القديمة ، وما تطور عنها فى الفنون الاسلامية ، حتى اصطلح على تعريفها تعريفا فنيا باسم « ارابيسك » ، وهى الزخارف المؤلفة من الحروف الأبجدية ، أو التكوينات الهندسية ، أو من تحوير الزهور وفروع النباتات وجذوعها وأوراقها الى أشكال متشابكة ومتكررة ذات تكوينات مبتكرة مليئة بالحركة والحيوية.

واستخدمت هذه الزخارف كأداة تزيين للمصاحف والمخطوطات ، والمنسوجات الفاخرة ، والأبسطة والسجاجيد ، والجلود ، والحفر فى الأحجار والخشب ، وأشغال التطعيم بالعاج والأبنوس ، وصناعة الزجاج ،

والخزف ، والمعادن . ولقد برع الفنان العربى فى هــذه الزخارف براعة لم يسبقه اليها أحد ، بل ولم يجاره فيها فنان آخر ، وانتشرت فى كل البلاد التى دخلها الاسلام ، أو انتقلت اليها عن تجارة الجمهوريات الايطالية (مثل جمهورية البندقية) ، أو عن طريق تركيا وامتداد سلطانها فى بلاد البلقان وجزر الأرخبيل ، أو بعد فتح الأندلس وجزيرة صقلية واختلاط العرب بسكان الأقاليم الجنوبية فى شــبه الجــزيرة الايطاليــة ، أو على أيدى قبــائل « النورمانديين » التى استوطنت صقلية بعد حكم العرب وعملت بدورها على نقل أزاهير الفنون العربية فى أنحاء القارة الأوروبية .

الفنون الفرعية

كانت المنطقة التى تقوم فيها القومية العربية مهد الديانات السماوية كلها ، كما كانت كذلك مهد حضارات أقدم الشعوب التى سكنت الأرض ، مما أدى الى طبعها بطابع روحى وثقافى جعلها تدخل فى دور جديد من التفتح والازدهار منذ القرن السابع للميلاد ؛ لتكون مركزا لاشعاع أكبر حضارة انسانية عرفها التاريخ.

وفى ربوع هذه المنطقة الشاسعة ، انتشرت الفنون الفرعية انتشارا واسعا أدى الى تشابهها واشتراكها فى خصائص عامة ، كما كان لبعض هذه الفنون تأثير واضح على الفنون الأخرى من حيث التصميم والتركيب الزخرفى رغم اختلاف خاماتها وصناعتها ووظائفها كالمخطوطات والنسيج والأبسطة وتربيعات القاشانى والأوانى الخزفية،

والحفر فى الخشب والعاج والتحف المعدنيـــة ، فنشاهد فيها جميعا الأشرطة والجامات والنجوم متشابهة فى تكوينها وتوزيعها ودقة رسومها الهندسية أو النباتية أو الخطية ، وهى العناصر الثلاثة الأساســية فى الفنون الزخــرفية العربيـــة .

الخزف

من أقدم الصناعات الفنية وأبسطها وأكثرها شعبية ، مارسه الانسان الأول بطريقتين : الأولى طريقة الضغط بالطمى على هيكل من القش القابل للاحتراق ، ثم شاع استعمال الدولاب الدائر فى التشكيل الحر . والثانية ، وتسمى طريقة الحبال الملتفة بعضها فوق بعض الى أن يتم تشكيل الاناء أو الشكل المطلوب ثم يسوى سطحه .

وكانت الفسطاط من أهم مراكز صناعة الخزف فى مصر . وفى ايران والعراق كانت سامرا (على نهر الدجلة شمال بغداد) ، والمدائن (شرق بغداد) ، والرى (جنوب شرق طهران) ، وسوس (شمال شرق البصرة) ، ونيسابور (شرق ايران بالقرب من مدينة مشهد) ، وافرسياب

(بالقرب من سمرقند) أقدم مراكز الخزف فى العصور الاسلامية الأولى .

والخزف «الجبرى» هو امتداد لصناعة عبدة النار فى العهد الساسانى بايران ، وأول ما عثر عليه فى مدينة الرى يرجع الى العصر الأموى ويدل على أن زخارفه النباتية كانت تحفر على سطح قشرة بيضاء رقيقة بحيث يبدو الحفر غائرا ليكشف عن طبيعة لون الطينة المصنوع منها الاناء الذى يعلوه طلاء شفاف من اللون الأخضر أو الأصفر المبقع بألوان أخرى ، أما النوع المعرق بالألوان فكان يصنع فيما بين القرنين الثانى والرابع للهجرة (٨و١٠ م) .

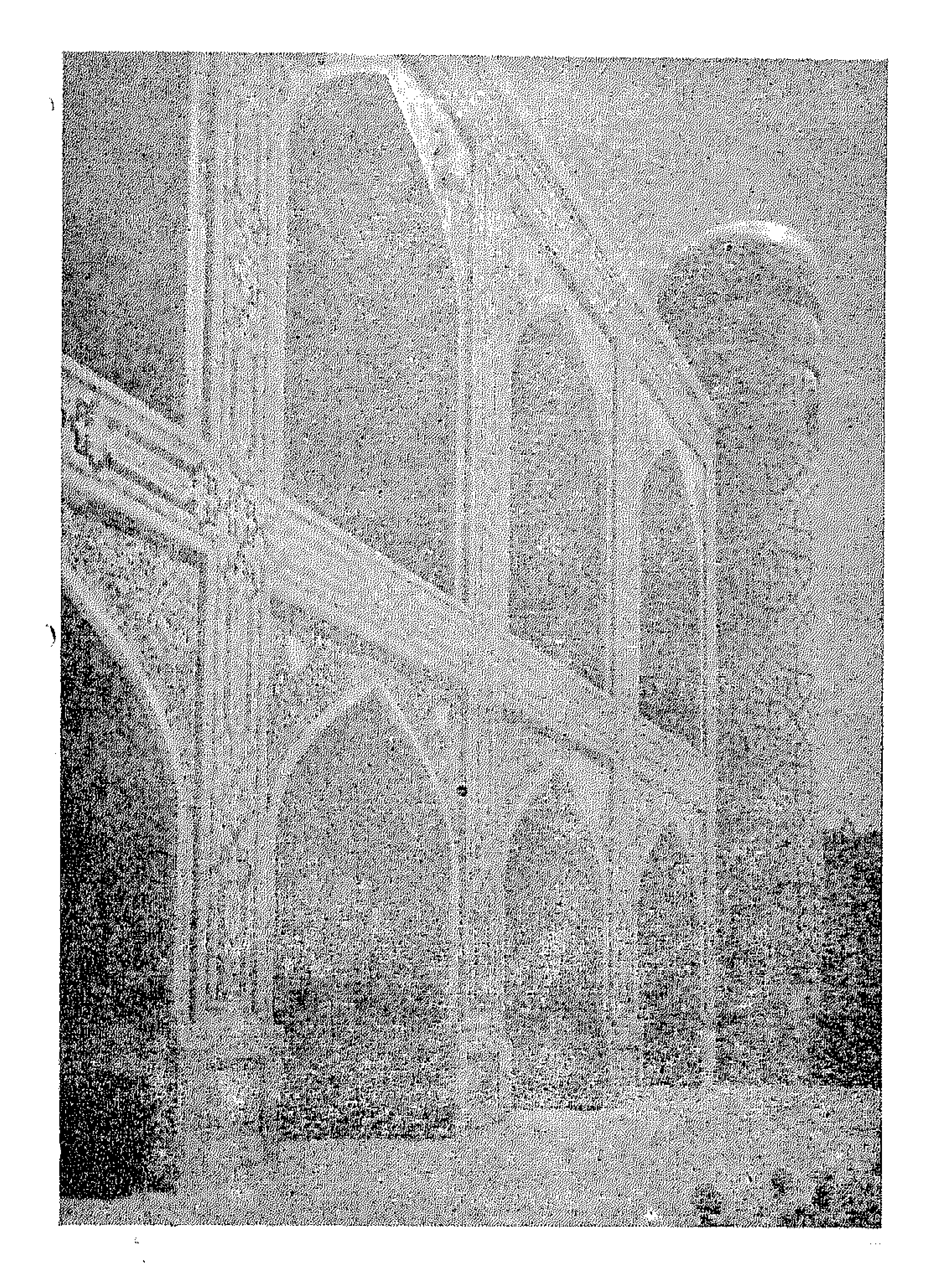
وفى العصر العباسى استعملت الزخارف البارزة بواسطة النصب بالقرطاس . وفى سامرا وسوس كانت الزخارف الهندسية والنباتية ترسم على السطح قبل طلائه بلون أصفر ذى بريق ذهبى .

وفى « سمرقند » وبلدان شمال ايران عثر على أوان مزخرفة برسوم هندسية وكتابات كوفية وتفريعات نباتية تحت طلاء ذى بريق معدنى .

والخزف ذو البريق المعدنى كان معروفا فى العصر العباسى فى سامرا والمدائن بالعراق ، وسوس والرى بايران والفسطاط بمصر (شكل رقم ١١) ، ومنه الذهبى أو البنى أو الأحمر ، وأجمل أنواعه وأغناها بالزخارف كان يصنع للحكام والأمراء ؛ وكان يستعمل فى الأوانى والأطباق وكذلك فى البلاطات لكسوة جدران المحاريب كمحراب مسجد القيروان[١] .

واستمر البحث الكيميائى فى استخدام الاكاسيد وأجمل الألوان ذات البريق المعدنى ، منها الأرجوانى والياقوتى والأصفر المرمرى والأخضر التركوازى والفيروزى والأزرق الزهرى (كوبالت) .

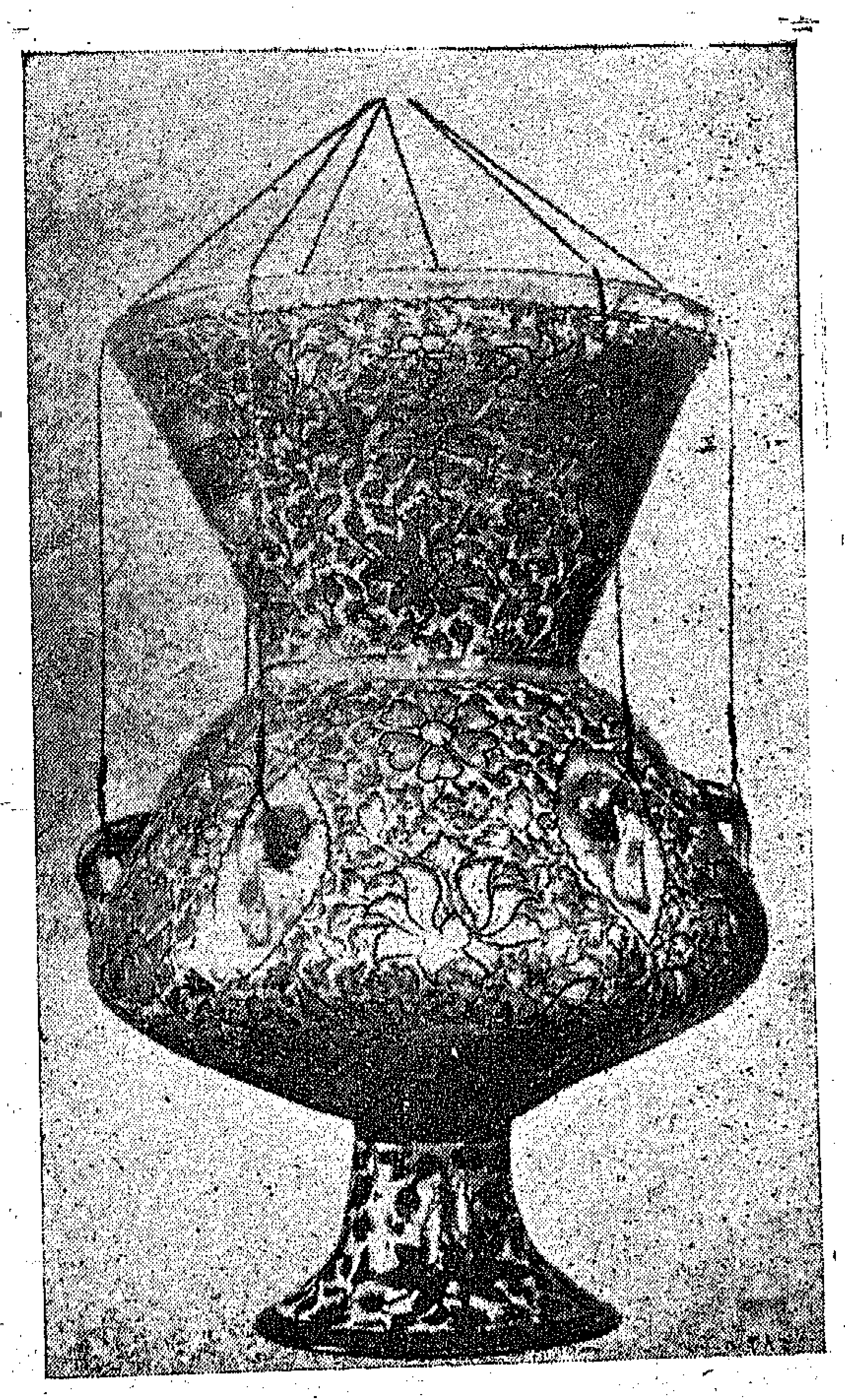
وعرفت مصر فى العصر العباسى والعصر الطولونى — منذ القرن الثالث للهجرة (٩ م) — صناعة الخزف ذى البريق المعدنى ، كما كانت الفسطاط ذات شهرة كبيرة بفضل ما تجمع فيها من خزف الشرق الأدنى . ولقد أمكن العثور فى حفائر الفسطاط على بقايا تجارب لهذا النوع



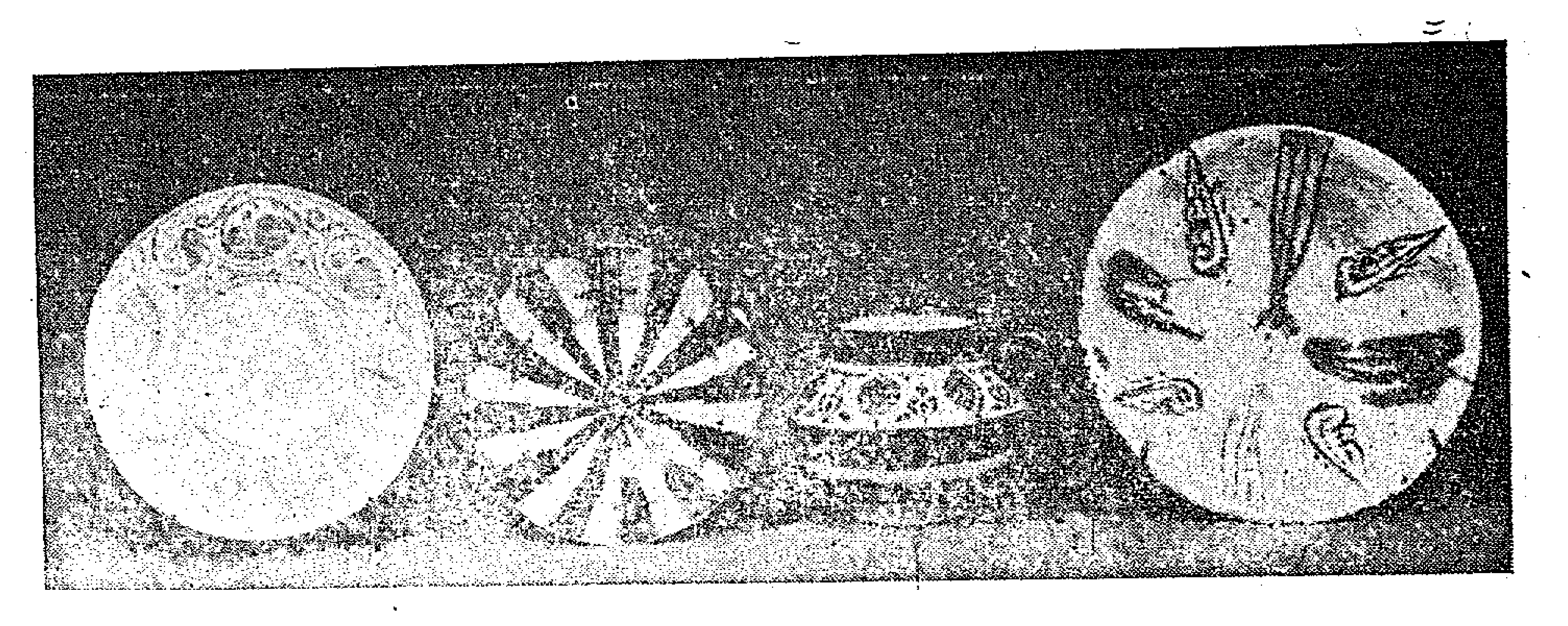
شكل (١١) واجهة مدرسة تيليا كارى بسمرقند من
الفسيفساء والخزف الملون

من الخزف البراق الذى بلغ درجـة عالية من الجـودة والاتقان فى العصر الفاطمى فى اقليمى الجمهورية العربية المتحدة . وفى متحف الآثار العربية بالقاهرة أمثلة جميلة كاملة لأنواع من الخزف ذى البريق المعدنى ، ويشهد ببراعة صناعه فى استعمال الفرشاة فى رسـم الأشخاص والحيوانات والطيور والتفريعـات النباتية المحـورة . واستمر الخزافون فى الاقليمين الشمالى والجنـوبى فى التطور بفن الخزف فى العصرين الأيوبى والمملوكى (شكل رقم ١٢) الى أن بلغوا أعلى مراتب الجمال والرشاقة والدقة فى استخدام الزخارف النباتية على طبيعتها ببراعة وأستاذية مشهودة (شكل رقم ١٣) .

وفى العصر السلجـوقى فيما بين القـرنين الخامس والسابع للهجرة (١١و١٣ م) تطور الخزف الاسـلامى وأصبح من الفنون الفاخرة المتقنة . وشاعت الزخارف المبتكرة المحفورة أو البارزة أو المنقوشـة أو المفرغة . واشتهرت نيسابور وهـراة والرى وأصـفهان وقاشان كمراكز هامة للخزف ، وتضمنت الزخارف صورا آدمية وحيوانات وطيورا ومناظر الصيد . واشتهرت كذلك الرقة



شكل (١٢) مشكاة من الزجاج من الفن الاسلامى فى مصر



شكل (١٣) من اليمين الى اليسار – (١) صحن ايرانى ذى زخارف خضراء وصفراء وقرمزية على أرضية بيضاء من القرن ١٠ م. (٢) أبريق قاشانى من صناعة ايران. (٣) سلطانية من نوع القاشانى من صناعة ايران مزخرفة باللونين الأسود والأزرق على أرضية بيضاء من القرن ١٣م. (٤) صحن مذهب من صناعة مصر فيما بين القرنين ١١و١٢م.

(على نهر الفرات) والرصافة (غرب الفرات) بالاتقان والألوان النادرة وثراء الزخارف المتشابكة للنباتات المحورة والكتابات الكوفية والنسخية .

وفى نهاية القرن السابع للهجرة (١٣ م) مارس الخزافون رسوم الطيور فى أوضاع ثابتة أو محلقة ، واهتموا بالصور الآدمية ومظاهر الحياة اليومية . كما شاعت صناعة البلاطات لكسوة المآذن وقباب الأضرحة[1] والمساجد والمحاريب ، واشتهرت فى هذه الصناعة مدينتا قاشان والرى .

وفى العصر الصفوى عرف الخزاف الايرانى نوعا من الصينى الرقيق (البورسلين) ، وأبدع ما صنع منه فى عصر الشاه عباس وهو كثير الشبه بما كان يصنع فى الصين فى عهد أسرة « منج » .

وفى أصفهان استخدمت الفسيفساء المصنوعة من الخزف فى القرن الحادى عشر للهجرة (١٧ م) على نطاق واسع فى عهد السلطان شاه چهان .

---

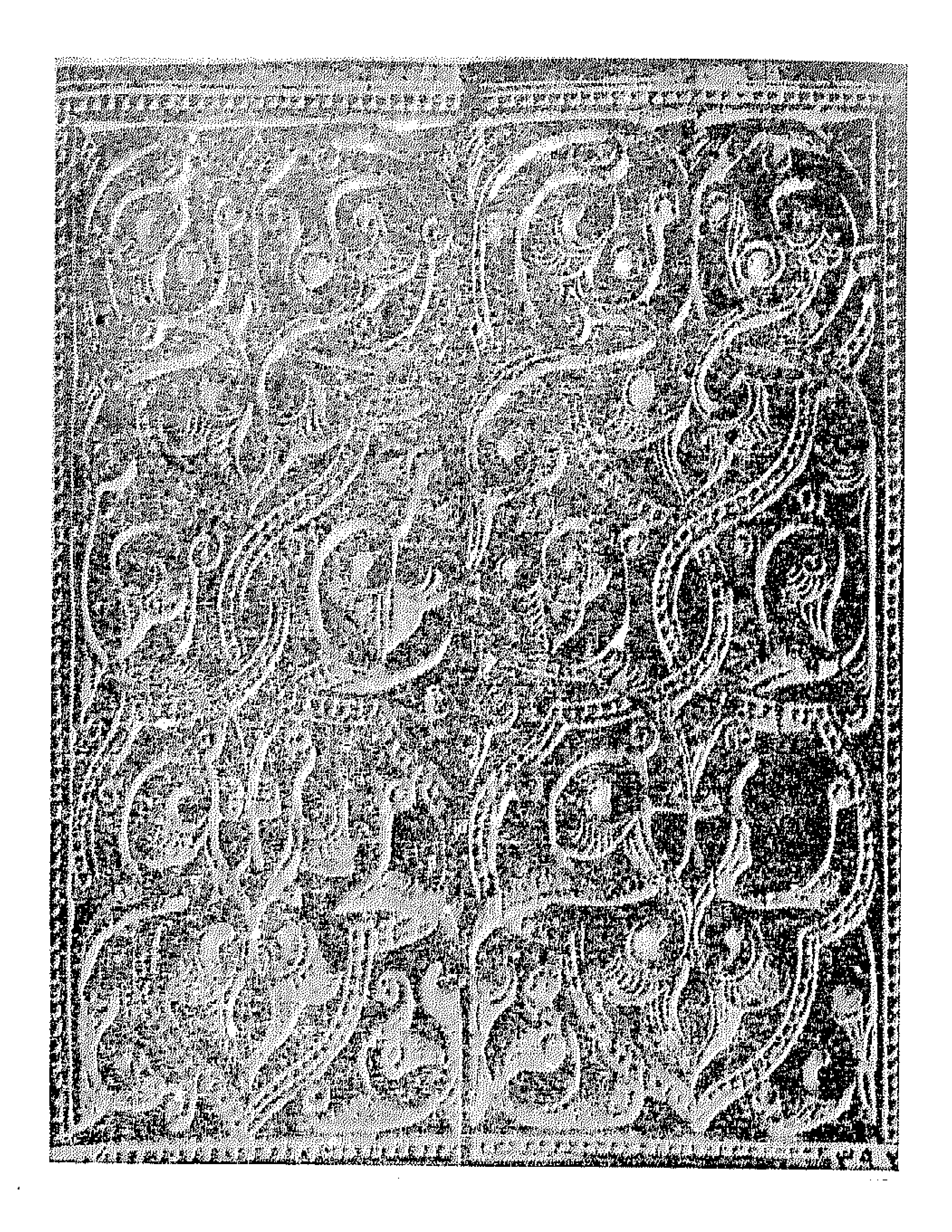
(١) من أشهر الأمثلة باب ضريح « تيمورلنك » من العصر المغولى (القرن ١٤ م) .

وفى الأندلس برع العرب فى فن الخزف ذى البريق المعدنى كما برعوا فى فن العمارة وأنتجوا أنواعا جيدة منه منذ القرن العاشر الميلادى . وكانت لهم مصانع أخرجت تحفا كانت للايطاليين مصادر الهامهم فيما أنتجوه من الخزف المعروف بالماچوليكا نسبة الى مصنع عربى كان يعمل فى جزيرة « ميورقة » . كما كانت هناك مصانع أخرى فى مالجا وغرناطة وبالنسيه واشبيليه .

الحفر على الخشب والعاج والعظم

الحفر في الخشب والعاج والعظم من الصناعات الفنية الدقيقة التي برع فيها الفنان العربي منذ العصرين الأموي والعباسي في صناعة الأبواب والمنابر ذات الزخارف النباتية والهندسية قليلة البروز .

وفي الاقليم المصري تطورت هذه الصناعة الفنية ، منذ العهد الطولوني ، وبلغت ذروتها في العصر الفاطمي متأثرة بالصناعة الفنية الأخرى (شكل رقم ١٤) . وأصبحت الزخارف أكثر عمقا ودقة ومهارة ، وأكثر تعبيرا عن الحركة والحيوية في الرسوم الهندسية والكتابات وفروع النباتات والحيوان والطيور في صناعة قطع الأثاث والأبواب والمنابر وكراسي المصاحف ومقاعد المقرئين والشبابيك والمشربيات والصناديق والكسوة الجدارية والدعامات والسقوف ومحاريب القبلة والشرفات .



شكل (١٤) حشوة من خشب منحوتة بالتفريغ والتخريم
من نهاية العصر الفاطمى

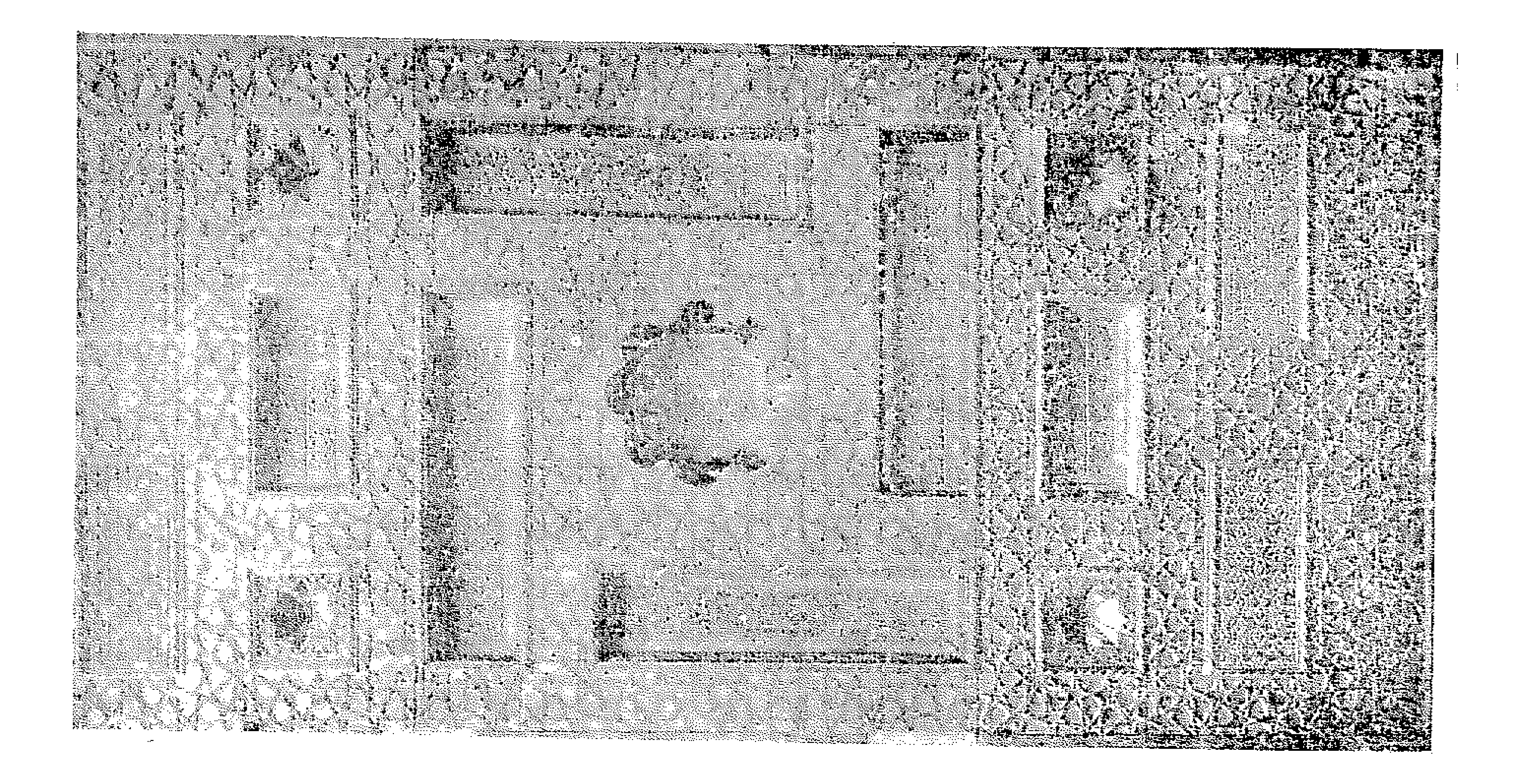
ولقد برع قبط مصر فى هذه الصناعة ، وكان لهم تأثير واضح فى العصر الفاطمى ، ومن أشهر التحف القبطية التى صنعت فى العصر الفاطمى جدار له باب خشبى ويوجد الآن بكنيسة « أبى سيفين » بمصر القديمة ، وهذا الجدار مقسم الى مستطيلات ومربعات ذات حشوات زخرفية تمثل رهبانا وصلبانا ، وفى ضريح السلطان « الناصر محمد بن قلاوون » ألواح خشبية كانت تغطى الأجزاء العليا من جدرانه ، ويرجع عهدها وطرازها الى العصر الفاطمى ، ويرجح أنها من بقايا القصر الذى بناه الخليفة « العزيز » ، وتعتبر من أجود الأمثلة وأغناها بالزخارف .

ومن آثار العهد الأخير للدولة الفاطمية قطعة محفوظة بمتحف دمشق مؤرخة فى سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٣ م) ، ومنبر خشبى فى دير « سانت كاترين » فى سيناء ، حفر عليه اسم « الآمر باحكام الله » ووزيره « الأفضل شاهنشاه » فى سنة ٥٠٠ هـ (١١٠٦ م) ، وهو كثير الشبه بمنبر آخر يوجد فى حرم الخليل فى فلسطين . وفى متحف الآثار العربية بالقاهرة ثلاثة محاريب ترجع الى

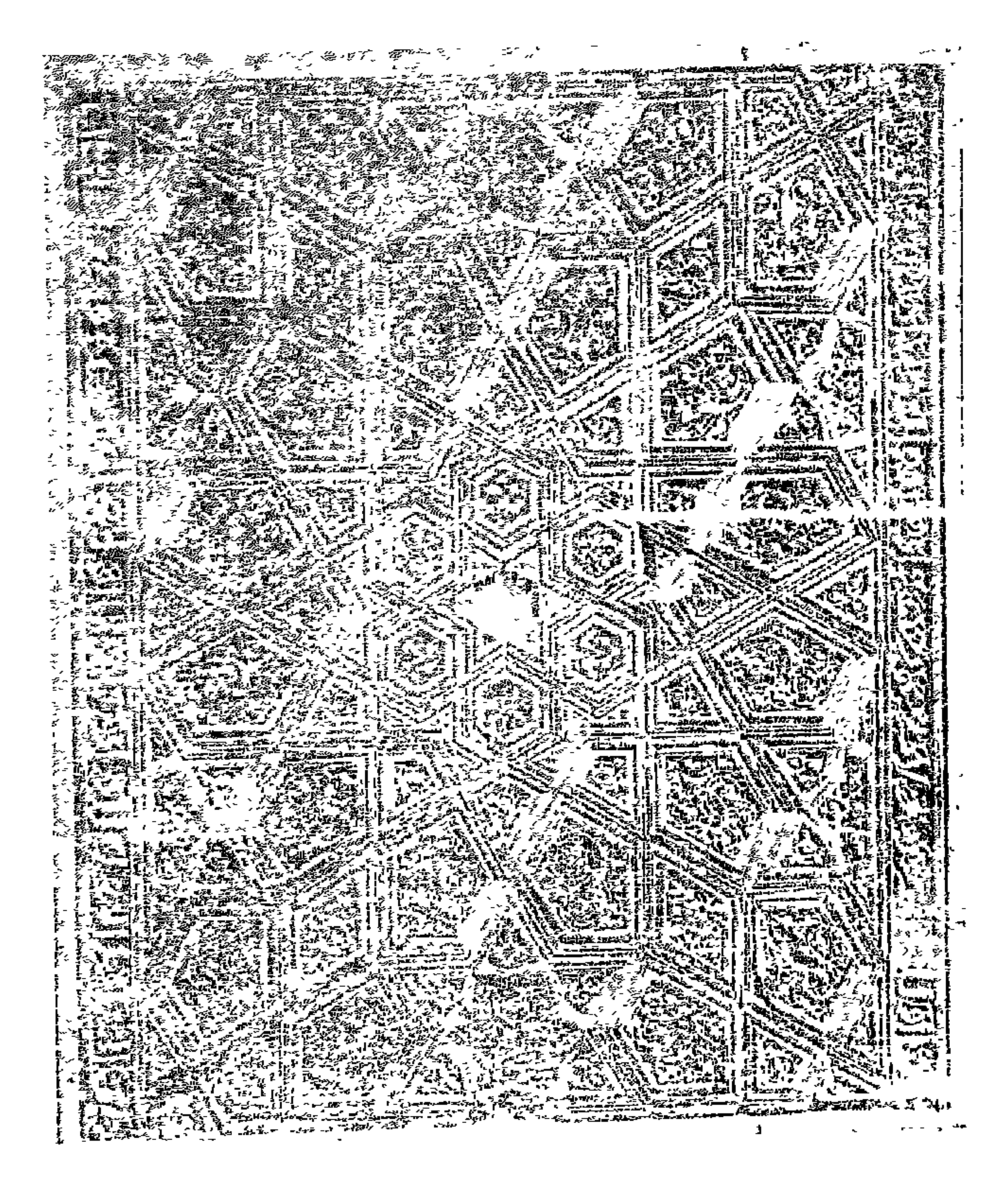
نفس العهد ، وهى من المخلفات المنقولة من الجامع الأزهر، وجامع السيدة نفيسة ، وجامع السيدة رقية (شكل رقم ١٥) . وبمتحف الآثار العربية بالقاهرة سقف خشبى منقول من قبر الامام الشافعى من أعمال القرن ١٢ للميلاد (شكل رقم ١٦) .

واستمرت صناعة الحفر على الخشب فى عصرى الأيوبيين والمماليك ، وتتميز بالدقة ، والميل الى استبدال الخط الكوفى بالنسخى ، وكثرة الزخارف الهندسية المتعددة الأضلاع المتشابكة والمتداخلة أو المعينات أو المربعات والدوائر ، والاكثار من النجوم والجامات ، كما تقدمت كذلك صناعة الخرط الدقيق وتطعيم الحشوات الخشبية بالتلبيس أو التطعيم ، أو التكفيت أو الترصيع بأنواع من العاج والعظم والأبنوس والأصداف أو بأنواع من الخشب الثمين ، وشاع استعمالها فى قطع الأثاث والكراسى والدكك والصناديق وعلب الحلى وأدوات الزينة وأبواق الصيد .

وفى ايران ازدهرت هذه الصناعة منذ فجر الحضارة الاسلامية ، واستمرت فى العصر « السلجوقى » الى أن



شكل (١٥) سقف من الخشب من منزل عربى الطراز بالقاهرة وتتكاثر فيه الزخارف الهندسية المتعددة الاضلاع والمربعات والمستطيلات والجامات الدقيقة الصنع .



شكل (١٦) حشوة من النحت فى الخشب المعشق وجدت فى مقبرة الامام الشافعى . وتوجد الآن بدار الآثار العربية . ويرجع عهدها الى القرن الثانى عشر الميلادى .

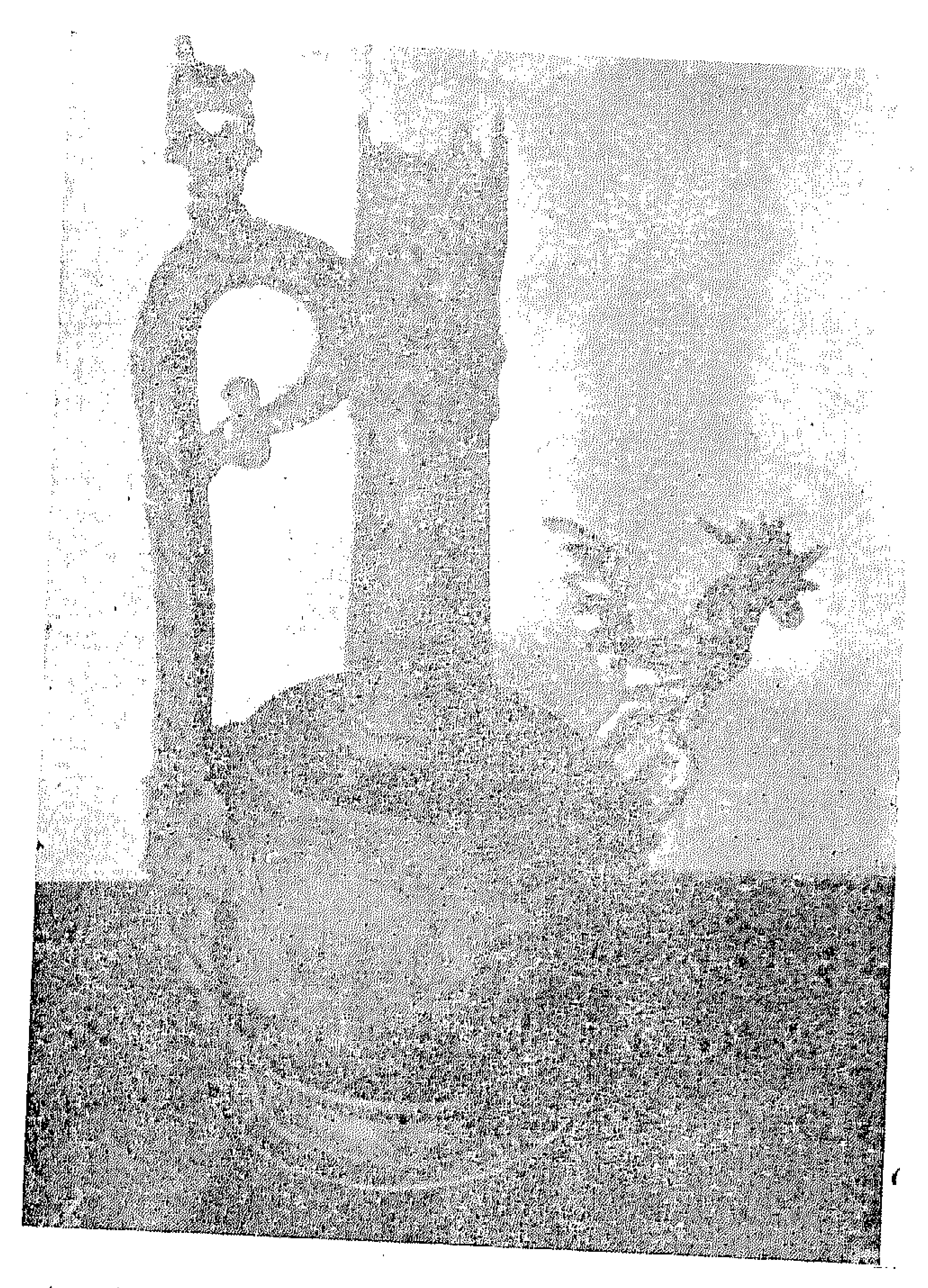
بلغت ذروتها فى العصرين « المغولى » و « التيمورى » ثم « الصفوى » بأسلوب جديد فى دهـان الرسـوم والزخارف المحفورة بالألوان ، وشاع استعمالها فى صناعة الأبواب والخزانات والدرايا[1] وكانت الزخارف تتكون فى غالبها من الزهور وأوراق النبـاتات والحيـوانات والطيور . وفى أواخر القرنين الثانى عشر والثالث عشر للهجرة (١٧و١٨ م) استعاضوا بألوان « اللاكر » فى الدهان والزخرفة بدلا من الحفر .

وفى الأندلس سلك فن الحفر فى الخشب ، الأسلوب المصرى المملوكى ، ومن أجمل أمثلتـه أبواب قاعـة الشقيقات بقصر الحمراء فى « غـرناطة » ، وفى قصر « اشبيليه » .

(١) الدرايا : جمع درئية (ياراقان) .

أشغال المعادن

صناعة التحف المعدنية معروفة فى ايران فى العصر الساسانى وفى مصر على أيدى قبطها ، ولا غرابة اذن أن يجيد صناعتها العرب منذ فجر الاسلام. وأهم ما كان يصنع منها الأباريق والأوانى وتحف على هيئة حيوانات وطيور بعضها من البرونز وبعضها من الفضة ، أما زخارفها فمنها البارز أو الغائر أو المطعم بالنحاس الأحمر . وفى دار الآثار العربية بالقاهرة ابريق من البرونز يرجع الى عهد الخليفة الأموى « مروان الثانى » ويرجح أن زخارفه الغائرة كانت مطعمة بالأحجار الكريمة وألوان المينا ؛ وكانت أوانى الماء تصنع على هيئة ديكة أو بط أو حمام أو غزلان أو آسود ، بعضها أملس السطح

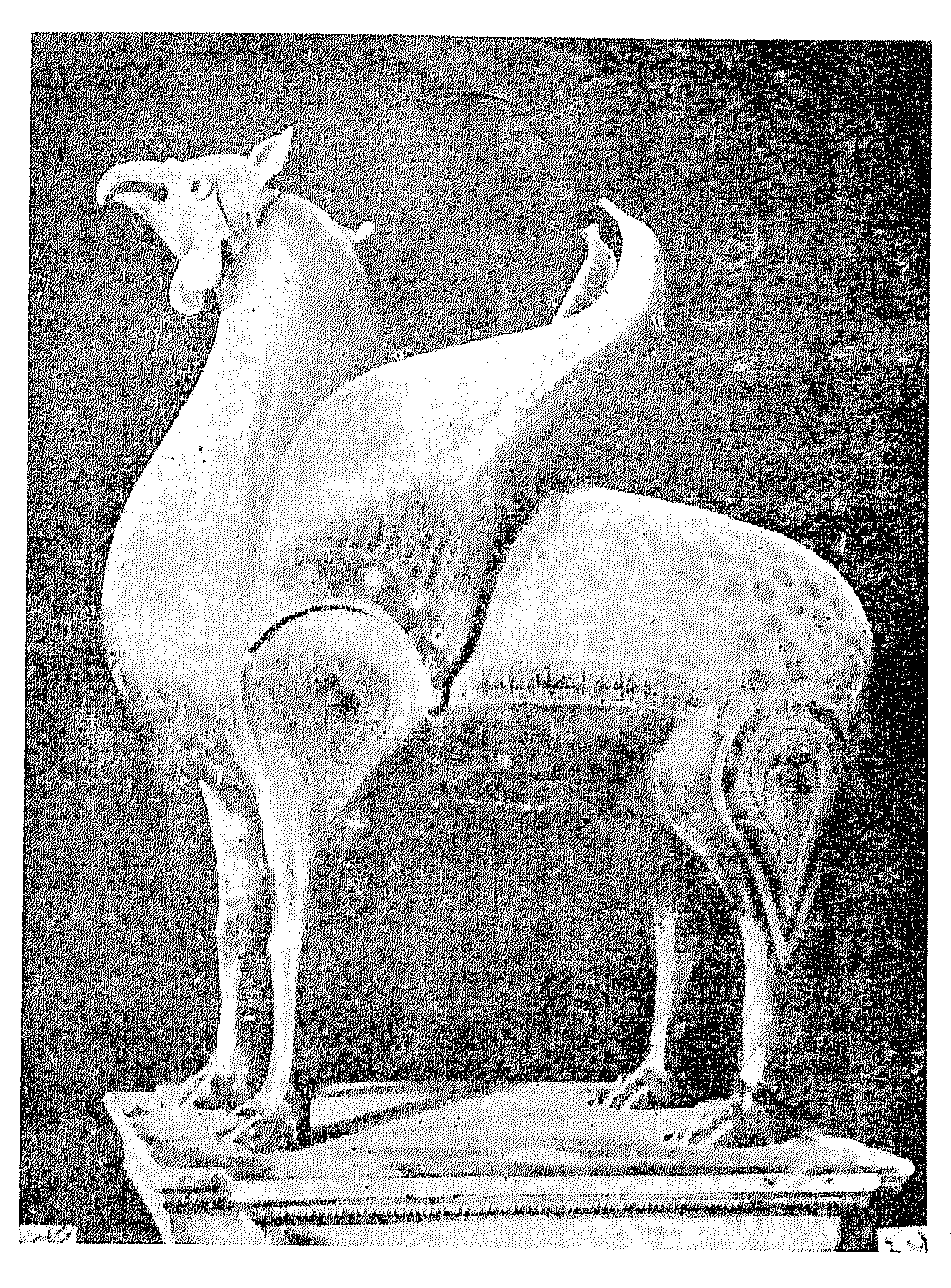


شكل (١٧) ابريق من البرونز من أوائل العصر الاسلامى
بدار الآثار العربية

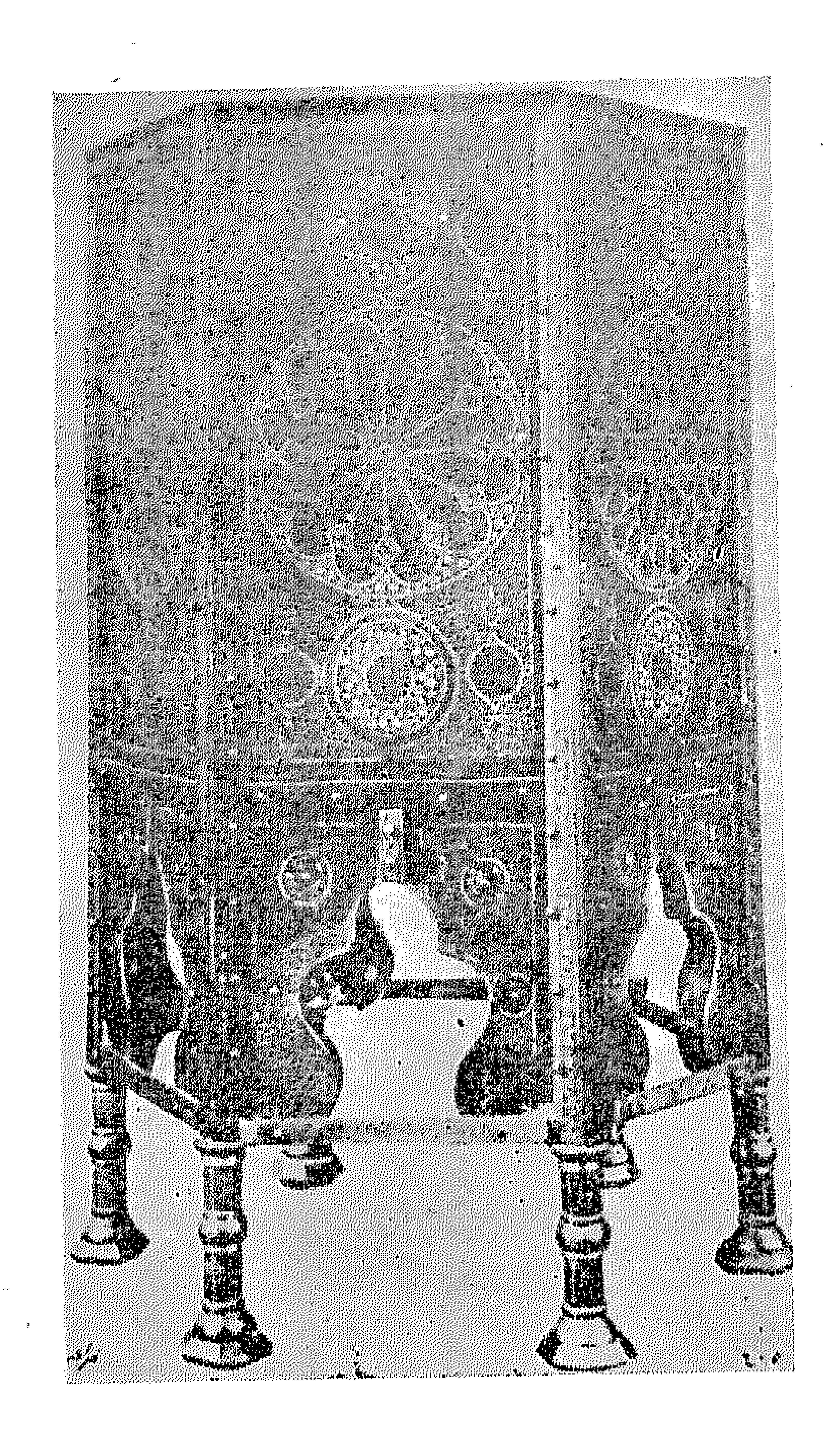
وبعضها مزخرف ، لها أبدان كروية تخرج منها صنابير على هيئة طائر أو حيوان ، ورقابها اسطوانية الشكل (شكل رقم ١٧) .

ولم تخل قصور الفاطميين من التحف المعدنية النفيسة كالمباخر والأوانى ذات الصنابير والتماثيل للحيوانات والطيور ، أو ما يجمع بينهما على هيئة السنمور ، وهو حيوان غريب مجنح ، مثل العقاب المجنح على جسم أسد المحفوظ الآن فى مقابر مدينة پيزا بايطاليا ومصنوع من البرونز ، ويقال انه كان جزءا من نافورة مياه . ويغطى الجسم كله زخارف بعضها يشبه ريش الطيور على العنق والجناحين ، وبعضها رسوم نباتية وهندسية وخطية تبدو كأنها كساء مزركش (شكل رقم ١٨) .

وفى متاحف الغرب أمثلة لا حصر لها من التحف البرونزية والتماثيل والأسلحة الفاطمية كالأوانى والأطباق والكؤوس والصحون والمرايا ، والحلى والأقراط والقلائد ، والخواتم والقماقم والقنانى والشمعدانات ، والمسارج والصوانى والحوامل التى ترفع عليها الأباريق ؛ والصناديق والعلب والثريات (شكل رقم ١٩ و ٢٠) .



شكل (١٨) العنقاء من النحاس ــ فن اسلامى فى مصر
من عصر الفاطميين



شكل (١٩) كرسى من نحاس مخرم مطبق بالفضة من القرن الرابع عشر الميلادى

ويعتبر العصر السلجوقى فى ايران ، من العصور الزاهية فى صناعة التحف المعدنية المموهة بالمينا ذات الألوان المعدنية البراقة كعنصر من عناصر الزخرفة الملونة فى رسوم الآدميين والحيوانات والطيور فى داخل جامات[1] تحوطها راقصات ، ويربط بعضها ببعض رسوم لأشجار النخيل والرمان ، وفروع النباتات المضفرة أو المفرغة . وكتابات كوفية . أما أدوات الزينة فى هذا العصر ، مثل الأقراط والدلايات فكانت تصنع من الذهب على هيئة أهلة مزخرفة بوريدات بارزة أو مفرغة تتجلى فيها مهارة الصانع وقدرته على ابتكار الأساليب الفنية والموضوعات الزخرفية والمهارة فى الحفر البارز والغائر والتكفيت والطلاءات الملونة (شكل رقم ٢١) .

والعصر المغولى فى ايران هو استمرار للصناعة السلجوقية . وكانت الموصل من المراكز الهامة التى ازدهرت فيها صناعة التحف المعدنية ، وانتشرت منها

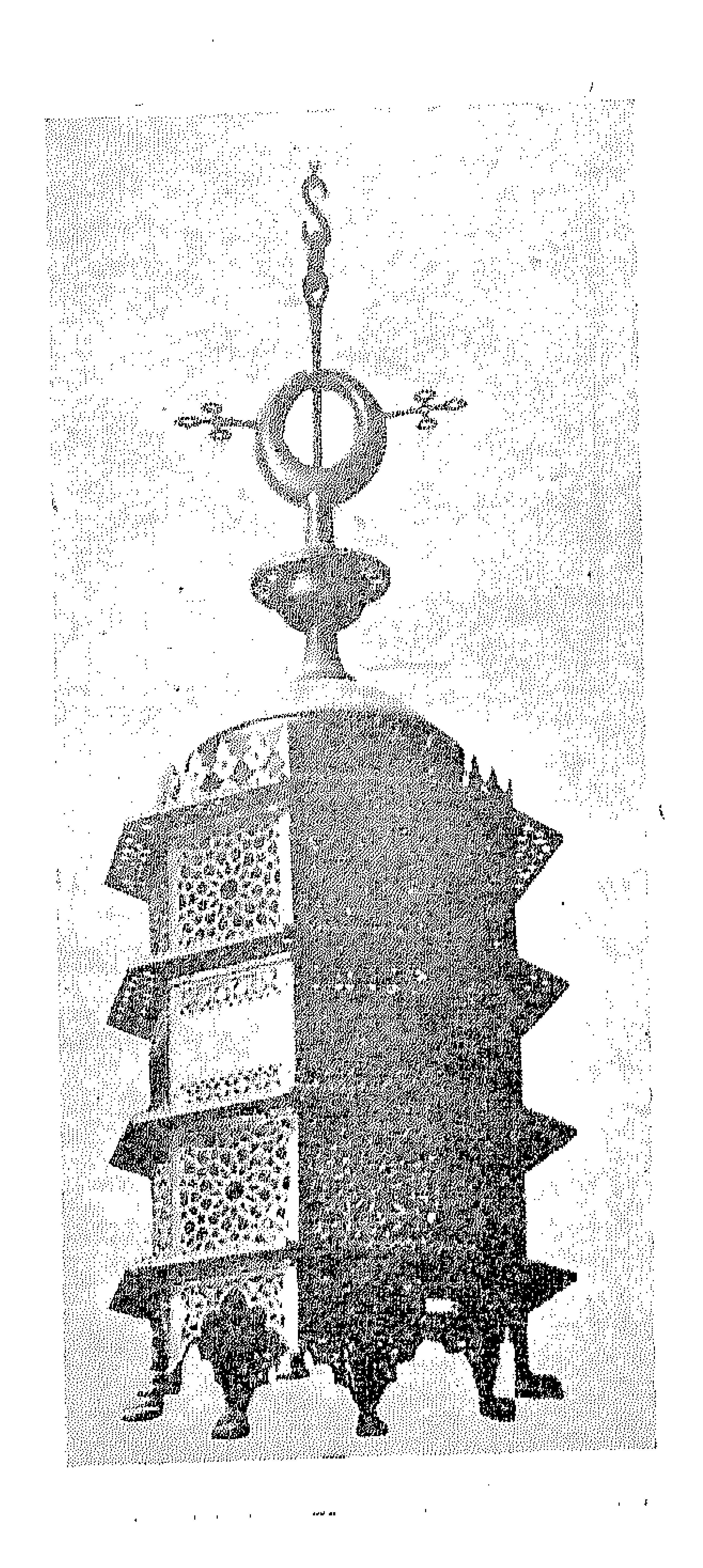
---

(١) الجامة هى الكأس وجمعها جامات وأجوام و (الجويمة) تصغير الجامة .



شكل (٢٠) قاعدة شمعدان من النحاس بها كتابة من عناصر آدمية وحيوانية

الى مصر فى عصر المماليك . وكانت الأسلحة والخناجر والخوذات والدروع ، الى جانب التحف الأخرى ، من أهم ما عنى به الصناع المهرة . وكان العصر الصفوى امتدادا للعصر المغولى ، وأصبحت التحف المعدنية تصنع من النحاس الأصفر وتغطى بثروة من الزخارف الدقيقة الصنع ، أما التحف المصنوعة من النحاس الأحمر فكانت تطلى بالقصدير ليكسبها بريق الفضة .



شكل (٢١) ثريا من النحاس من القرن الرابع عشر

م ١٠ —

الزجاج والبلور الصخرى

عرفت مصر صناعة الزجاج منذ أقدم العصور ، وكانت سورية أسبق دول الشرق الأدنى الى معرفة هذه الصناعة التى انبثقت وأينعت فى اقليمى الجمهورية العربية المتحدة منذ السنين الأولى للاسلام ، ومنهما انتشرت الى العراق .

وفى القرن الخامس الهجرى بدأت تظهر أساليب جديدة ومتنوعة ، فى مصر ودمشق وصور وعكا والخليل وحلب وانطاكية ، للزجاج المنفوخ فى قالب ذى جزئين من الخشب أو المعدن أو الفخار ، وهى أقدم الطرق الفنية . وكانت الزخارف تنقش يدويا بواسطة ابرة معدنية أو عجلة خاصة للقطع ، وما زالت هذه الطريقة متبعة حتى

وقتنا الحاضر فى أعرق بيوت صناعة الزجاج الفنى فى كثير من بلدان أوروبا [1] .

والزجاج كغيره من صنوف الفنون الفرعية كان مزدهرا فى الدولة الفاطمية ؛ ويتميز بالدقة والاتقان ؛ وعرف منه المذهب والملون والمزخرف بزخارف غائرة أو بارزة ، والنوع السميك منه يعرف بالبلور الصخرى . وكانت الفسطاط والفيوم والاسكندرية من أهم مراكز هذه الصناعة التى انتشرت انتشارا كبيرا ، وقيل : انه فى القرن الخامس من الهجرة (١١ م) كانت الأوانى الزجاجية تستعمل للكيل ، وكان البدالون والعطارون يقدمونها مع ما يحتاجه المشترى بدلا من قراطيس الورق فى عصرنا

---

(١) يعتبر مصنع « موزن » فى كارلسباد باقليم بوهيميا فى تشيكوسلوفاكيا من أشهر مصانع الزجاج البلورى (كريستال) فى العالم ، ومازال يعمل منذ تأسيسه فى سنة ١٨٥٨ ، ولقد شاهدت الصناعة فيه تتبع هذه الطريقة التقليدية القديمة باعتبارها أسلم الطرق الفنية التى يتحكم فيها الصانع بقدر كبير فى تكوين الشكل وزخرفته يدويا .

الحاضر ، وعرف منها القنينات والسلاطين والقماقم والكؤوس .

وعرفت سورية زخرفة الأوانى والأكواب الزجاجية بخيوط وأقراص مضافة من الزجاج البارز المضغوط على السطح فى أشكال هندسية منقوشة أو مفرغة ، وكانت حلب من أهم مراكز هذه الصناعة فى العصر المملوكى ، واشتهرت بعمل المشكاوات المذهبة والمموهة بطلاء المينا والمزخرفة بالزهور وفروع النباتات البديعة الصنع لمساجد دمشق والقاهرة وبغداد . وتطورت صناعة الزجاج مع تطور صناعة المعادن فى ايران ، وفى العصر المغولى تأثرت بصناعة الصين ..

أشغال الفسيفساء
"والخردة"

الفسيفساء هى « الموزايك » ويقصد بها تلك الزخارف الجدارية المصنوعة من قطع صغيرة من الزجاج أو الخزف الملون أو الحجارة النفيسة المتعددة الألوان . وأول من استعملها الأشوريون ثم الاغريق والرومان والبيزنطيون ، وعنهم استخدمها العرب فى تكسية الجدران والأرض بزخارف هندسية ونباتية ومناظر طبيعية فى مسجد قبة الصخرة ، والمسجد الجامع بدمشق والقصور الأموية .

وأجمل الأمثلة التى ما زالت باقية حتى اليوم هى زخارف مسجد قبة الصخرة بالقدس ، وتغطى الأجنحة التى تقع بين النقاء كل عقدين ، ورقبة القبة ، ثم القبة نفسها . وبعض هذه الزخارف آيات قرآنية بخط كوفى

مذهب على أرضية زرقاء اللون والبعض الآخر زخارف محــورة للأعناب والرمان والفواكه وأوراق النباتات وباقات الزهور والأهلة والنجوم .

وعرف العرب صناعة الخردة ، وتصنع من قصاصات من المرمر الأبيض والملون وتتألف منه أشكال هندسية دقيقة ، منها : المستدير ، والمتعدد الأضلاع ، والأطباق النجمية لتغطية الجدران .

وازدهرت هذه الصناعة فى مصر والمغرب والأندلس الى أن شاع استعمالها فى ايطاليا على يد « كوزيمو » الذى كان أول من مارس هذه الصناعة التى سميت باسمه « كوزماتسكو » وانتشر استعمالها فىالحشوات الزخرفية الهندسية الأشكال فى تغطية جدران الكنائس من الداخل والخارج وبناء المنابر وشرفات المرتلين وهياكل الكنيسة وأرضها فى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد.

النسيج والأبسطة والسجاد

أنشأ العرب دورا لصناعة النسيج والأبسطة والسجاد فى مصر وايران منذ أوائل العصر الاسلامى .

وكانت صناعة المنسوجات من الصوف والكتان من الصناعات المزدهرة فى مصر منذ عصر الفراعنة الى العصر المسيحى ، وكان الأقباط يجيدون زخرفة المنسوجات برسوم الأشخاص والطيور بأسلوب بيزنطى فى داخل جامات بيضية أو متعددة الأضلاع ، واستعان العرب بمهرة صناعهم بعد فتح مصر ، ثم أخذت هذه الصناعة تتطور باتنظام بعد استبدال الرسوم الآدمية بأخرى زخرفية مجردة .

وبرع الايرانيون فى نسج الحرير ، وبلغت هذه

الصناعة ذروتها فى العصر الساسانى ، واستمر اقبال الرومان على اقتناء المنسوجات الايرانية حتى العصر البيزنطى .

ولقد بلغت صناعة المنسوجات الحريرية والصوفية ، الموشاة بالذهب والقصب ، أعلى مراتبها بعد أن انتهت فترة التقشف فى صدر الاسلام ، فبدأت المنسوجات النفيسة تصنع لتخلع على أئمة العلم والدين وذوى المراتب العليا ، وكانت أشهر مراكز صناعة النسيج فى مصر مدينة « تانيس » بالقرب من بور سعيد . وفى مدينة « تونة » كانت تصنع كسوة الكعبة ، التى تزينها الآيات القرآنية ، كما اشتهرت دمياط بصناعة الأقمشة من الكتان الأبيض . وذاعت شهرة الفسطاط والاسكندرية ، وكانت بلدة « العزم » بالقرب من أسيوط ، وأرمنت واخميم والبهنسا من أشهر مراكز نسيج الصوف والكتان فى صعيد مصر .

وفى سورية اشتهرت المنسوجات الحريرية الدمشقية. وفى العراق كان « الموسلين » من أفخر ما تنتجه مدينة الموصل . وفى الأندلس اشتهرت غرناطة بالمنسوجات التى عرفت باسم « جرينادين » . كما اشتهرت كشمير فى الهند

وغيرها من المراكز الهامة التى كانت تصنع النسيج تحت اشراف الحكومة .

وكانت ملابس الخلفاء والأمراء وكبار رجال الحاشية تسمى «الطراز» ، وهى كلمة مشتقة من الكلمة الفارسية « ترازيدن » ومعناها النسيج الثمين المطرز بالأشرطة المكتوبة بالدعاء بالبركة وطول العمر ، والزخارف الهندسية المتقاطعة أو المتماسة . ولقد استعملت الكتابة العربية على المنسوجات منذ القرن الأول من الهجرة .
(٧ م)

ولقد اشتهرت الفيوم بالمنسوجات الرقيقة والدقيقة(١) منذ القرن الثالث من الهجرة . كما اشتهرت تانيس بصناعة نوع من قماش « البوقلمون » الذى يتغير لونه مع اختلاف ساعة النهار .

وأجمل المنسوجات البديعة الصنع والزخرفة فى العصر الفاطمى ما كان يصنع فى عصر المعز والعزيز والحاكم ، مثل الجلابيب والقمصان والعمائم والأحزمة والكوفيات

---

(١) مازالت صناعة النسيج فى الفيوم مزدهرة حتى وقتنا الحاضر .

والشيلان والعباءات وملابس السيدات الموشاة بالقصب الملون أو الكتابات الكوفية أو الزخارف النباتية والزهور ورسوم الطيور والحيوانات الصغيرة الأليفة .

والأبسطة ذات الوبر كانت تصنع فى الفسطاط ، ومنها قطعتان بمتحف الآثار العربية بالقاهرة ، على احداهما تاريخ صناعتها — ٢٠٢ أو ٢٠٦ من الهجرة (٨١٧ أو ٨٢١ م) ، وتزينهما زخارف مثلثة الأضلاع ومستديرة ، وتتميزان بدقة الصنع ، واستعملت فيهما الألوان الزرقاء والصفراء والخضراء والبنية على أرضية حمراء ، أما الكتابة الكوفية فهى على شكل اطار أصفر اللون على أرضية من اللون الأزرق الداكن .

وبلغت شهرة أسيوط فى صناعة الأبسطة والسجاجيد فى العصر الفاطمى ما يقطع بأن مصر برعت فى هذه الصناعة وتفوقت فيها .

وكانت لايران شهرة واسعة فى صناعة الأبسطة والسجاجيد لا تقل عن شهرتها فى الخزف ، وأقدم الأمثلة عليها يرجع الى الأسرة الصفوية فى القرن العاشر من الهجرة (١٦ م) ، وكانت زخارفها متأثرة الى حد كبير

بزخارف المخطوطات . ويمكن تقسيم الأبسطة الايرانية حسب أنواع زخارفها أو المدن التى صنعت فيها ، وكانت تبريز ، وأصفهان ، وقاشان ، وكرمان ، وهراة ، وقراباغ ، وشيراز ، وهمدان ، ويزد ، من أهم مراكز صناعة الأبسطة والسجاجيد .

ومن أشهر السجاجيد ذات الجامات ، سجادة « اردابيل » المشهورة وهى من تصميم مقصود كاشانى ، وكان من المقربين الى مجلس الشاه عباس الصفوى ، ويرجع عهدها الى سنة ١٥٤٠ للهجرة ، وتعتبر من أثمن وأندر مقتنيات متحف « فيكتوريا والبرت » فى لندن وتبلغ مساحتها ½ ١١ × ½ ٥ من الأمتار ويقدر ثمنها بحوالى مائة ألف جنيه فى الوقت الحاضر .

وفى هراة كانت السجاجيد تصنع فيما بين القرن العاشر والثانى عشر من الهجرة (١٦ الى ١٨ م) ، وتتميز بزخارف نباتية أوراقها طويلة ومقوسة ، ومراوح نخيلية على أرضية حمراء اللون يحيطها اطار أخضر .

والسجاجيد التى استعملت فيها زخارف الحيوان أو رسوم الآدميين ، أو الزهور والورود على أرضية من

تفريعات نباتية كانت تصنع فى أقاليم ايران الوسطى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر للهجرة ، وأشهرها ما ينسب الى عصر الشاه عباس .

وفى تلك الفترة كانت مصانع البلاط تنتج أنواعا من السجاجيد الحريرية المشغولة بخيوط الذهب والفضة وتتميز بدقة الصنع ، والألوان والزخارف المتنوعة ؛ ورسوم الغزلان والنمور والفهود ومناظر الصيد والطبيعة على أرضية حمراء أو زرقاء اللون .

خاتمة

وبعد فاننا نستطيع أن نستخلص أن تراث الفكر العربى تجمع على مر الزمن بعد أن أصبحت اللغة العربية لغة البلاد التى انتشر فيها العرب . فلم يكن هذا التراث ملكا خاصا لقطر من الأقطار ، بل كان تراثا مشتركا بين الدول العربيـــة كلهـــا ، تناقلوه بالرواية ، والكتاب ، والانتاج الفنى .

وكان الفن بدوره عاملا أساسيا فى حفظ هذا التراث الفكرى ، ومقوما لخلق الشخصية العربية ، ومظهرا حيا للتفكير الذى ألف مشاعر الشعوب العربية ووحّـــدها وقرب بين مثلها العليا ، فأصبح اللسان الناطق بشعور شعوب تعاونت على انماء مقومات الفكـــر والثقـــافة والفنون من أجل دعم وحدة القومية العربية .

الفهـــرس

صفحة

صفحة

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر في أوله وفي منتصفه .

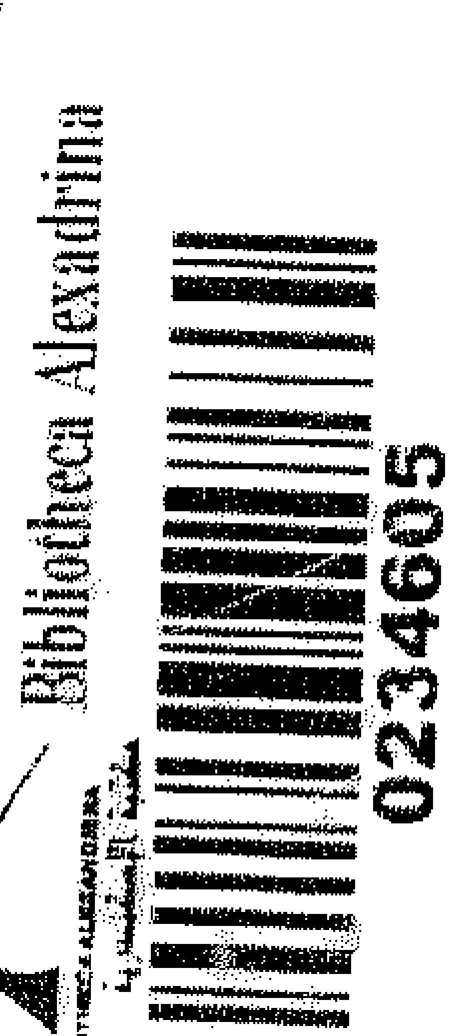
الكتاب القادم

أفلام ناث

بقلم

حسن الشيخ

١٥ ديسمبر ١٩٦٣



الثمن ٢ قرش

مطبعة مصر